إبداعات الفروع

سحر توفيق

رواية

طعم الزيتون

المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

سلسلة إبداعات التفرغ

[٦٥]

طعم الزيتون

رواية

سحر توفيق

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توفيق، سحر
طعم الزيتون : رواية / سحر توفيق
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ط٢، ٢٠١١
١٦٠ ص ، ٢٤ سم
١ - القصص العربية
(أ) العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ٢٠١١/٤٠٨٧
الترقيم الدولى I.S.B.N.978-977-704-579-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلس.

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 Fax : 27358084
www.scc.gov.eg

إلى .. عادل الشرقاوى

رفيق واحد وعشرين عامًا في هذا الزمن الغريب

واحد وعشرون عاما

الرشد ؟ ؟ الرحيل

هل ينظر الموتى ؟ وهل يعرفون ؟

الفهرس

تمهيد 7

يوم الجماعة الأول 11

أبو البنات 19

المؤامرة 27

اللئيم 37

الساهي 49

جاحظ العينين 61

أمسيات العجوزين 69

المحاولة الأولى للقتل 79

الفارع.. الطالع 91

الخلاص – الفقير 99

جلسات المساء 107

الوراقة 121

الغادر 139

طعم الموت 157

تمهيد

قضيت اليوم، وكان معي خمسة: واحد حكاء، وواحد مسلٍ، وواحد حكيم، وواحد ريِّس، وابن الريِّس.

شاهد ابن الريِّس الجرار فقام وركبه وأخذ يلف به بعض الوقت، ثم شاهد الحمار فركبه أيضًا وجعل يضرب بساقيه علي جنبيَّ الحيوان حتى يسرع به، يفرد ظهره ولا يمسك بشيء ويقول للريِّس: هل تعمل اليوم أبدا؟ حاول أن يبني بالطوب مع البنائين، وأخذ يعبث بالطين علي الدولاب ليصنع آنية. لكن لم يبد أن العمل اليوم سيجدي، لذلك فقد روي لنا الحكيم قائلاً:

لم يحدث من قبل أني ضيعت الكلمات، ولكن في هذه المرة ضيعتها عن عمد، وعن سبق إصرار وترصد.

تتراءى لي أشباحها في أوقات كثيرة تلومني، تنظر لي بحزن وعتاب، وأحيانًا، باتِّهام صارخ، حتى أفقد مقاومتي ولامبالاتي، فأحاول أن أستعيدُها، أتذكرها، لكنها بكبرياء الجريح تأبى على ذاكرتي، ثم مدفوعة بغريزة الانتقام تحاول تعذيبي، فتلقى إلي خاطري بواحدة منها، واحدة فقط، وتنسّل الباقيات هاربات، مختفيات في غابة معقدة متشابكة من الذكريات اللانهائية. عبثًا أحاول مطاردتها، فهى تختفي جميعًا خلف جذوع الأشجار الضخمة، أو الأعشاب الشائكة، أو بين الوريقات الكثيفة، وتخرج لي نفس الكلمة، نفس الكلمة لا غير، وكأنها لسانها.

وأحيانًا أتحول إلى نوع من الإحساس بالوله بهذه الكلمات وحدها، نوع من الندم علي ضياعها، وأقضى الساعات أبحث عنها بين ثنايا الذاكرة، لكنها اكتسبت من

مطاردتي لها خبرة ذكية بمسارب الهروب، فأرجع من رحلة البحث يعلوني اليأس والإحباط.

فإذا حاولت الهروب منها بالقراءة أجدني لا أقرأ، وإنما أتوه في المعاني.

يقول العبد الفقير إلي الله تعالى يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربيني كان الله له ورحم سلفه: "فالشارح لا يخرج عن كلام الماتن كما هو عادة القاطن في هذا الفن والطاعن، فيا له من شرح لو وُضع على الجبل لتدكدك، ولو نُقش علي عامود الصواري لتحرك، ولو مُسَّ به حجر لتشقَّق، ولو أُلقي في اليِّم لتكدر"(١).

وأقول أنا العبد الفقير إلى الله تعالى، أقول لجدي هذا، كان الله له ورحم سلفه وخلفه الذين أنا منهم: لا أجد إلا أني - ورغم ما قلتَ وكررتَ - عليَّ أن أمضي في شرحي وقولي، ولا يوقفني أنك قلت لي مثل هذا، فأنت نفسك لم يوقفك قولك المكرر والمعاد منذ بدأ الشارحون يشرحون إليَّ أن اتخذوا أماكنهم فوق أعمدة الصحف وسائر تلال المنشورات التي لم نعد نعرف لها أولاً من آخر، كما لم نعدْ نستطيع أن نعُدَّ أصنافها وألوانها. ولو رأيتَ من يكتبون فيها وعرفت أصنافهم وألوانهم وما يدَّعيه كل منهم من اتجاهات فكرية ومذاهب فنية وماهية كونية وما زاد على ذلك كثير، ومنه - وليس كله - أن بعض النساء ادَّعين لأنفسهن حرفة الأدب، وطاولن الرجال في مهنة الكتابة، وجرؤن علي ما يدَّعيه الرجال من الجرأة. ولو رأيت بعد كل ذلك ما يكتب اليوم ويسطر من الرجال والنساء على السواء - رغم ما قلت من حكم لم تزد شيئًا، ولم تنقص - لوددت أنك لم تقل ولم تنبس. والحقيقة أنه هذا - أعني مثل الذي قلت أنت وأفضت في شرحه - هو الذي يجعل من الكلام خصمًا تود الخوض فيه، وحبيبًا ترغب في وصله وتدنيه، وأحيانا إلهًا تكفر في قدس اقداسه، وقد رغبت فيه حتى لم أبالِ برفقة زبانية جهنم، ورأيت أن الكلمات أحرف تتراص برفق أحيانًا ويعنف أحيانًا لتصنع تعاويذ الفعل.

---

(١) هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف"، الشربيني، المطبعة والمكتبة المحمودية بمصر، ص ٣.

الأحرف تعاويذ لها فعل عميق الولوج في كل الأشياء. الأحرف تعاويذ ساحرة للأنفس والمواد. الأحرف تعاويذ تفتح أبواب الجحيم. الاسم السري لرع يفتح الباب الأربعين، باب المجهول الرائع، باب المجهول الذي تكمن خلفه الفتنة، باب الغواية التي لا راد لها، باب السحر والمقدرة.

الاسم السري لرع من أية أحرف خلق؟ كيف أرض الأحرف حتي أصل إليه، وأعرفه وأعيه، وأفعله، وأري فعله؟

عندما وصل الحكيم إلي هذا الحد من القول، قال الريِّس: " يكفي هذا يا رجال، علينا الآن أن نقوم إلى أعمالنا".

قال الحكاء: ولكن هذا يشبه ما حكيته يومًا لبعض من كنت أجالسهم من حكاية الإخوة، كان ذلك قبل معرفتي بكم، وعملي في هذا الحقل معكم، وهذا ما سوف أحكيه لكم الآن.

اعترض الريِّس قائلاً: ولكن الكفاح المفروض علينا سوف لن ينجز، والحكايا تفتح الطريق للشيطان.

قفز المسلِّي واقفًا، وتقمص طريقة الريِّس، قال المُسلى وهو يتمطى: هو يوم من أيام الله ياريسٌ، ولن يضيرنا إن عملنا أو عرفنا، وعندما نعرف سنعمل أفضل، دع الحكاء يقول، وليكن هذا كله من النهار.

وعندما حكى الحكاء، لم يكن يتكلم، فقد كنا نعرف الحكاية على أي حال.

يوم الجماعة الأول

كان رجل قد عاش يومًا وقد أنجب الكثير من الأبناء، الكثير الكثير من الأبناء، لكن الفارق الوحيد بين هذا الرجل والرجال الآخرين أن أبناءه أحبوه بلا حرج، أحبوه حبًا كبيراً، ولم يصبهم الحرج من ذلك يومًا، بل على العكس، كانوا فخورين به، وبكل الطرق جربوا أن يشهد الآخرين دلائل هذا، حتى أنهم بعد موته اجتمعوا وقرروا أن يجعلوا أكبرهم، ذلك الذى ورث عباءة الوالد، نائبهم في تقرير الطريقة التى بها يبدون ذلك. وكان اجتماعًا رهيبًا، في الحقيقة بدا في أول الأمر هينًا وجميلاً، لكن الأمور تطورت بعد قليل، فقد كان أصغرهم قد شتل أرضه أرزًا، وكان هو الوحيد الذي يبدو أحيانا مخالفا، وفى هذا الأمر كان مخالفا جداً، بدا هذا واضحًا للوهلة الأولى، حتي أن الأخ الأكبر – وارث العباءة – كان يهز رأسه أسفًا وهو يعيد ويكرر المرة تلو المرة، ومع كل هزة رأس كانت عيناه تضيقان أكثر مما كان يبدو عليهما، ولذلك فإن أحد الإخوة، والذى كان يبدو على شيء من السذاجة والطيبة، وهو نفسه كان واسع العينين جاحظهما حتي أنه كان يتمكن من رؤية دائرة أوسع دائما، هذا الأخ جاحظ العينين قد تساءل في غباء:

– هل حقا أن ضيق العينين يدل على شيء من ضيق العقل؟

كان يتمتم بذلك في صوت خفيض، ومع ذلك فقد سمعه الأخ الذي كان جالسًا بجواره والذي كان يبدو ضخم الجثة كثيف الشعر، بدينًا، فرد عليه ساخراً:

– من ذا الذي يسأل عن ملامح الغباء؟

وكان الأمر الذي شدهم جميعًا وجعلهم يضيقون بأخيهم الصغير هذا أن الأب قال يوما أن القمح أهم من الأرز، فمنه نصنع الخبز، وهو الذي يُشارك في غذائنا بالقسم الأكبر. وإذ اجتمعوا ليدللوا علي حبهم لأبيهم طلب الأخوة من أخيهم أن يترك أمر الأرز هذا، قال الأخ الأصغر شاتل الأرز محتجًا:

– ولكني شتلته بالفعل، وتركه يعني خسارة كبيرة لى.

اختلفوا بشدة في هذا الأمر، فمنهم من قال فليكمل هذه الزرعة ولا يعود لمثلها، ومنهم من قال بل اخترتم مغانم الحياة وفضلتموها علي أبيكم الذى كنتم من صلبه ولولاه لما كنتم، وهؤلاء قالوا أن عليه أن يمنع الماء عن الأرز حتي يجف ويموت ثم يزرع شيئًا آخر. قال الأخ الأصغر محتجًا:

– لكني لو فعلت ذلك سأخسر مالي الذي أنفقته في هذا الزرع، ثم إنني لن أجد ما أقوت به "أولادي" في الموسم القادم، بل ولن يكون لدي مال أشتري به بذوراً جديدة وأستأجر محراثا وغير ذلك، ثم ماذا أفعل بالحشائش الميتة في أرضي بعد أن تجف؟

(كان يقول "أولادي"، والمعنى هنا أهل بيته.)

وفي هذا الأمر أيضًا اختلفوا، وقال بعضهم:

– ما أسهل أن تقلبها في الأرض فتصبح سمادًا جيداً وتفيد أرضك منها، أو تستخدمها كعلف للحيوانات، أو تبيعها في السوق لأصحاب القمائن فهم يستخدمونها.

لكن البعض الآخر رأي غير ذلك، فعندما قلَّبوا فيما قال أبوهم فهموا ما لم يفهم غيرهم. وملكة الفهم هذه كانت ذات أهمية، لأنه عن طريقها كان يمكنهم أن يجدوا الجرأة الكبرى في دحض أية أقوال أخرى. لقد رأوا الأمر على النحو الآتي، كما قالوا:

– ولكن، ألم يقل أبونا أن القمح أهم من الأُرز؟ ألا يعني ذلك أنه كان يكره زراعة الأُرز؟ بل وقد يُعنى أيضًا أنه كان يكره الأُرز نفسه ! ثم إذا كان والدنا يكره الأُرز، ألا يكون من الأفضل ألا يقلبه في أرضه لئلا يثير ذلك غضب روح أبينا فلا يرتاح في قبره؟ ثم إذا أطعمه لحيواناته، ألا يكون بذلك قد دخل الأُرز في بناء لحمها ولبنها الذي سيتغذى أولادنا عليه؟

وكان القول الذي انتهى إليه هؤلاء الذين يفهمون أكثر هو كما قال أحدهم:

– أظن أنه من الأفضل أن نتجنب الأرز تمامًا ولا يزرعه أحدنا مرة أخرى.

وكما قال آخر:

– أظن أنه من الأفضل أيضًا ألا نأكله.

وكما قال ثالث:

– ومن الأفضل والأجدى ألا نُطعمه أولادنا أبدًا.

وكما قال رابع وكان هو الأخ الأكبر وارث عباءة الوالد:

– طيب، يجب أن ننتهي إلى ألا نُدخله بيوتنا من الأصل.

وهنا، كان الرجل الوحيد الذي لم ينجب إلا البنات، وكان عنده تسع بنات في الحقيقة ولا يفكر سوى في أن بناته سيتزوجن من أبناء أُخوته هؤلاء، كان قد وقع في حيرة عظمى، فقد كان يحتفظ في بيته بكمية كبيرة من الأُرز لأنه كان يرغب في المتاجرة بها ليزيد من دخله، فهو يفكر دائمًا في الادخار ليتمكن من تزويج بناته، تمتم في ما يشبه الدهشة والألم:

– ولكن ماذا أفعل فيما في بيتي من الأُرز؟

قال وارث العباءة بلا تردد:

– ارمه فوراً.

في الحقيقة كان أبو البنات هذا يبدو أكثرهم مالاً، فهو ينتهز كل فرصةً للمتاجرة، لأنه كان يفكر دائمًا في مستقبل بناته كما ذكرت، ولذلك فقد عاد يقول:

– ولكن هذا سيكون فيه خُسارة كبيرة!!

وانتهز أحدهم هذه الفرصة الذهبية للاعتراض قائلاً:

– ثم إن أولادنا يحبون الأرز!!

بدا الغضب علي بعض الوجوه وصاح الذي كان يبدو أكثرهم حبًا للأب، وهو في الوقت نفسه كان يبدو أكثرهم إيمانًا وتقربًا إلي الله، بل وكان وجهه يتحلي بزبيبة في جبينه، وهو الذي كانوا يقولون أنه أكثرهم حلما، وفي الحقيقة أن هذا كله كان ادّعاء ورياء، ولذلك فقد كان هو الساهي الذي تحته دواهي، وكان في الوقت نفسه أيضا هو الثالث في ترتيب هؤلاء الأُخوة، صاح هذا الساهى:

– وهل حب أولادك الأرز يقارن بإقلاق روح أبينا؟ أنت لا تحب أبانا فيما يبدو!!

كان هذا أسوأ ما يمكن قوله، فلماذا يقف اليوم بينهم إذا لم يكن يحب أباه؟ وكان الساهي يعرف ذلك أيضًا، إلا أنه فكر هكذا: الأفضل أن أريه عواقب ما يقول فلا يعود لمثلها أبدا، وهذا ما حدث بالفعل، فقد قال أبو البنات متراجعًا:

– ولكنك تعرف أنني أحبه ولا أتمني شيئًا قدر أن يرتاح في قبره.

قال الساهي الذي تحته دواهي بصوت قواه الغضب:

– قل يرحمه الله.

قال أبو البنات منفعلاً وهو ينظر حوله كأنما قد ضُبط متلبسًا بالسرقة:

– يرحمه الله.

وهنا قرر الأخ الأكبر أن يحزم هذا الأمر فقال:

– إذن ارمِ هذا الأرز، ولا تعد لمثل هذا الحديث مرة أخرى.

لقد كان الأخ الأكبر في الحقيقة لا يجد مانعًا في أن يتزوج أحد أبنائه من إحدى بنات أخيه هذا، أما الآخرون فقد أخذوا ينظرون في اتجاهات مختلفة، يتفادى أحدهم أن تلتقي عيناه بعيني أخيه، فقد كان الأرز في بيوتهم جميعًا، وقد اتخذ الحديث وجهة لم يقصدها أحد منهم، ولكن اللئيم فيهم رأى مخرجًا سريعا فقال بذكاء:

– لم نقل ماذا يفعل أصغرنا بما في حقله من أرز؟

في الحقيقة كانت هذه قشة رائعة يجب التمسك بها فورًا، فأسرع الأكبر قائلاً في حزم وقوة من لا يخاف لومة لائم:

– بل قلنا، ولا داعي للكثير من النقاش فيما لا يفيد.

لكن الأخ الأصغر فيما يبدو لم يفهم بما يكفي، فقد كان مخلصًا لما يقول، وقال مبديًا اليأس:

– هل تعون ما تطالبونني به؟ إنكم تطلبون أن أموت وأهلي جوعا!

قال الأخ البدين ضخم الجثة، وكان متأثرًا دائما بضخامته هذه فبدا ساخرًا في حديثه، رغم صوته الأجش الغليظ:

– لا أحد يموت جوعا،ثم تأكد أنك حين تُرضي أباك الذي أوصانا الله بالإحسان إليه والبر به فلن ينساك الله أبدا.

عند هذه الكلمات التي بدت ساخرة في البداية، ثم اتجهت في نصفها الثاني إلى ما يشبه الصدق والحنان، بدأ الأخ الأصغر يتنفس بارتياح، فقد عُنيت هذه الكلمات الكثير، إلا أنه، ولمجرد التأكد، قال متسائلاً:

– هل يعني ذلك أنكم ستعينونني جميعًا علي مواجهة هذا الأمر وستتكفلون بي وببيتي طوال هذا الموسم، وبزراعة أرضي في الموسم القادم؟

لم يكن هذا ما قصده ضخم الجثة هذا علي الإطلاق، ولذلك فقد تلجلج، والجميع في الحقيقة وقعوا في الحيرة نفسها، فسكتوا ولم ينبس أحدهم خوفا من أن يقع في الخطأ نفسه. وانبرى بعضهم ينظر إلي البدين شذرًا، فقد أوقعهم في هذا المأزق. أما الفقير كثير العيال ذو الجلباب الأزرق القديم والذي كان ينتظر انتهاء هذه المناقشة ليسأل على استحياء عن عباءة أبيه، وهو الذي كان يعلم تماما أنها من حق الكبير فيهم، لكنه كان يعرف أيضًا أن هذا الكبير لديه غيرها، فتأمل لو يعطيه إيَّاها، وخاصة أنها عباءة قديمة، وربما تكون أقل جمالاً من عباءات الكبير التى صُنعت في زمن أقرب، كما أنه ليس بحاجة إليها مثله. كان يحلم بها لتقيه البرد القارس في ليالِ الشتاء، وقد يغطى بها بعض أولاده في الليل فتكون مصدر دفءٍ لأهل بيته جميعا، همس ذلك الفقير متسائلاً وكأنما كان يعدُّ ما في بيته من الطعام:

– هل نستطيع أن نضمن له ذلك فعلا؟

قال اللئيم، والذي كان بجواره، هامسًا له:

– ولماذا نضمن له ذلك؟ هل ذنبنا أنه خالف ما درج عليه أبونا وما أوصانا به؟

لقد كان الصمت الشامل ما جعل الكلمة الهامسة تسمع وكأنها أطلقت في وادٍ، وربما أن صوته ذا النبرة الخشنة لم يكن ممكنا له ألا يسمع، ما علينا من الأسباب، لكن النتيجة هى أن هذه الكلمة كانت هى المنقذ الحقيقي للأخ الأكبر وارث العباءة والذي قال في إجابة الأخ الأصغر:

– هذا خطؤك منذ البداية، وعليك أن تتحمل تبعات هذا الخطأ.

هز الأصغر كتفيه، لقد كان دائمًا ولدًا عاقًّا، ودائمًا كان مخالفًا للجماعة، وخاصة إذا لم يعجبه الكلام، وفي الحقيقة أنه نادرًا ما كان يعجبه أي كلام، وكان أبوهم دائمًا

يقول عنه أنه لن يفلح أبداً، وقد ثبت الآن صدق هذا القول حين قال مبدياً لامبالاة مدهشة:

– أظنكم تعرفون جميعا أنه بئس ما تطالبونني به، وأنني لست بمستطيع أن أتبعه، ولن أقتل أولادي بسبب أرز أو غيره.

بالطبع كان هذا أسوأ ما يمكن أن يصلوا إليه من نتيجة، لقد كان أملهم أن يجتمعوا على كلمة واحدة، قال أحدهم، وكان به بعض حكمة:

– أنتم قد بعدتم كثيراً، وليس هذا ما قصده أبونا.

لقد كانوا بانتظار أي منقذ من هذا الموقف المعقد، حتى أنهم استعدوا لقبول حكم من لا يقبلون حكمه في أي وقت آخر، نظروا ناحيته، كان يقف وفي وجهه نظرة جاهلة حزينة، كان يبدو أقلهم حجماً ووزناً، رأسه صلعاء وعيناه تبدوان مطفأتين، فقدتا البريق الذي تتمتع به عينا الصغير، قال وهو يدير هاتين العينين الصغيرتين فيهم جميعا:

– لم يقصد أبونا شيئًا من كل هذا.

قال البدين ضخم الجثة وقد دفع كرشه أماما، ودفع بصوته الأجش في آذان الآخرين كل الآخرين:

– وماذا كان قصده يا فالح؟ إن كنت تعرف !!

نظر الحكيم مُطفأ العينين إلى ذي الكرش قائلاً:

– إن كنت تذكر أنه قال فقط أن القمح أهم من الأرز، وما قال أبدا أن الأرز كريه أو قبيح أو سام أو ضار، أو نعته بأي وصف آخر، ثم أنه لم يقل إلا أن القمح أهم من الأرز، وهذا لا يعني حتي أن الأرز غير هامٍ، بل يمكن أن يكون هاماً أيضاً ولكن مرتبته تلي القمح في الأهمية.

ربما هنا كان يمكن أن ينتهى الأمر علي خير، وتكون النهاية السعيدة للقصة، لكن يبدو أن هذا لم يكن مرغوباً فيه من بعضهم، لأن وارث العباءة أحمرَّ وجهه، وقطَّب البدين حاجبيه، وربما رمى بنظرة ذات مغزي إلي اللئيم، بينما انتفخت أوداج الساهي وهو يحاول أن يقطب جبينه رغم الزبيبة التي تجعل ذلك صعبا، التقط اللئيم الخيط فيما يبدو، فانبرى قائلاً:

– ما هذا؟ ماهذا؟ هو لم يقل أبدا أن القمح أهم من الأرز، بل قال القمح أفضل من الأرز؟ وعندما تأتى المسائل لوضع المفاضلة فغير المفضل يكون مكروها، وهذا بديهي.

كان الفارع أصلع الرأس صامتًا حتى هذه اللحظة، لكنه انجَّر الآن إلى الحديث. قال الفارع الأصلع ذو الحدقتين الواسعتين:

– غير صحيح بالطبع، لقد قال القمح أهم ولم يقل أفضل.

قال الغبي ذو العينين الجاحظتين:

– وما الفرق ياعالم؟ ما الفرق إن كان أفضل أو أهم؟

قال الحكيم ذو العينين المطفأتين حزيناً وآسفًا:

– كيف تقول ذلك؟ الفارق كبير جداً، أكبر مما تتصور، أهم أبسط من أفضل ولن توصلنا إلي الكثير من المشاكل، ولكنى أرى أنكم تريدون المشاكل، ترغبون في التعقيد، ولم يعد أبوكم يرحمه الله موجوداً حتي يوقفكم كما كان يفعل قبلا، فجرتم وانتهى.

عند هذا الحد وقف الأصغر ونظر لهم جميعا شاملاً بنظرته كل ما في القاعة الفسيحة من بيت أخيهم الأكبر – وارث العباءة – حيث كانوا يجتمعون، ثم بلا كلمة، غادر المكان.

أبو البنات

توقف الحكّاء ليأخذ نفسًا طويلاً، فانبرى المسلي يتحدث.

قال المسلي موضحًا بعض ما غمض:

لم يكن أبو البنات يرغب فيهن عندما تزوج، بل كان راغبًا - كما عند جميع الأسوياء من البشر - بإنجاب البنين، ولكن عروسه أنجبت في أول أعوامها توأما، بنتين، فلما انتهى نفاسها اجتمعت عليها نساء القرية كل تدلى بوصفتها السحرية من أجل إنجاب الذكور، وعندما اتَّبعت بعض النصائح جاءت في العام التالى بتوأم آخر، بنتين، فلما انتهت من نفاسها الثانى اجتمعت نساء القرية مرة أخرى يتشاجرن، فمن اتَّبعت وصفتها ثبت فشلها، ومن لم تتبع وصفتها ألقت عليها باللوم لأنها لم تولها ثقة في هذا الأمر الهام، في هذه المرة اتبعت بعض الوصفات الأخرى، فلما دار العام ولدت توأما، بنتين للمرة الثالثة، وفى العام الرابع جاءت ببنتين للمرة الرابعة وأصبح لدى هذه الأسرة ثمانى بنات في أربعة أعوام، وهى كارثة لم تحدث لأحد في هذه القرية من قبل.

عندما انتهت من نفاسها الرابع قالت أم البنات لزوجها: لقد جربت كل الوصفات التى لدى نساء هذه القرية، ولم يبق لدى وسيلة أخرى، وأخشى إن أنا حملت مرة أخرى أن آتي ببنتين فيصبح لدينا عشر بنات وهذا لا يحتمل، فلتذهب إلى شيخ القرية المجاورة، فقد يكون لديه ما يقوله لك.

كانت ثمانى بنات بالفعل شيئًا لا يحتمل، لم يكن لديه ما يقوله على أية حال، سوى أن هذا هو ما قدَّره له الله، لكن السعى خير من القعود على كل الأحوال، ولم

يكن هناك ما يمكن فعله غير ما أشارت به المرأة. لو أن مشورة المرأة كانت خيرًا أبدًا لما كان هذا هو الحال، فقد أشارت النساء بكل الطرق ولم ينتج سوى ثماني بنات، ولكن ما باليد حيلة.

في الصباح الباكر، وقبل أن يخرج الرجال إلى الحقول، كان أبو البنات يتخذ طريقه إلى بيت الشيخ حاملاً خُرجا مليئًا بالخبز الطازج، طرق باب الشيخ المبارك، فلما فتح له ورآه عرفه، قال له تاركًا فسحة في مدخل الباب:

- تفضل.

فلما جلسا، ظل الشيخ ساكنًا، وأطرق أبو البنات، ثم متشجعًا مد يده بالخرج الذى كان يخفيه بين طيات ثوبه قائلاً بصوتٍ خافت:

- النبي قبل الهدية، أم البنات تصبح عليك، وقد صنعت هذا الخبز بيدها من أجلك هذا الصباح.

قال الشيخ وهو يتناول الخرج:

- هدية مقبولة، أكرمك الله وأم البنات.

مد الشيخ يده تحت الفراش ليقرب موقدًا صغيرًا، فأوقده، ثم مد يده تحت الفراش مرة أخرى ليخرج صينية رصت عليها أكواب وآنية وما إلى ذلك مما يلزم لصنع الشاى.

عندما رشف أبو البنات من كوبه انطلق لسانه فجأة كأنما كان مربوطًا بحبل وانفلت:

- امرأتي لاشيء آخذه عليها، هى طيبة، ومطيعة، وتعمل بلا كلل، والخير جرى في بيتى منذ دخولها، حقلي ينتج أفضل، ودواجن بيتي تبيض وتفرخ، والحمائم تنتج بانتظام، حتى جاموستي اعتادت عليها وأصبحت لا تقبل يدًا تلمس ضرعها سوى يدها، فلما تحلبها تدر لبنًا طيبًا، وتعمل المرأة على إنتاج الجبن والزبد منه بانتظام. لا

أستطيع أن أشكو منها، وحتى من هذا الاتجاه فهي ولّادة، تأتي بتوأم كل عامٍ، هذا أيضًا طيب، إلا أنها لا تلد لي إلا إناثا، ولأنها ولادّة، فقد أتت كما ولابد أنك تعلم بثماني إناث في أربعة سنين عددا، قالوا لي طلقها وانظر امرأة أخرى، لكني لا أشكو منها، وأخشى إن أنا اتخذت امرأة أخرى أن أدخل قدم شؤم إلى داري. كان أبي دائما يقول النساء نوعان، امرأة تخطو إلى دارك فيدخل الخير بدخولها، وامرأة لو دخلت دارًا كانت شؤما على أهلها، خربتها، وضيعت من فيها، فاتَّخذوا لأنفسكم قدم الخير، وإذا عرفت امرأتك قدم خير فلا تتركها. وأنا عرفت أن امرأتي قدم خير، فماذا أفعل؟ قالوا لي أنك قد تعرف لي مخرجا.

لم يتكلم الشيخ، وإنما قام من مجلسه واتَّجه نحو الغرب حيث الجدار الخالي من الأبواب، فتح دولابًا في الجدار، ثم عاد بعد لحظة وفي يده حُقٌّ صغير، قدَّمهُ له، فسأله:

– أهو لي أم لامرأتي؟

نظر إليه بعينين غائرتين ووجه أبيض غضنته السنون، قال بهدوء:

– أما تعبت امرأتك؟

تعبت؟ هذا قليل على ما مرت به من أجل أن تأتي ولو بذكر واحد، قبل أن يجيب على سؤال الشيخ كان هذا قد وقف مُدليًا المسبحة التي بيساره جانبا، ومادًا يده بالسلام، اتَّجه إلى الباب خارجا من دار الشيخ، أغلق الباب خلفه تاركًا الشيخ المبارك يعود إلى ما كان فيه، أيا ما كان. ماعلينا من هذا على أية حال، لكن أبو البنات انطلق إلى بيته، مخفيا الحُق في ثنايا جلبابه، فرحًا بما أتاه، مصدقا لما سوف يجنيه.

وما إن مرت أشهر قليلة، حتى ظهر الحمل للمرة الخامسة، وفي هذه المرة ولدت المرأة بنتا واحدة، واعتبر الجميع هذا نجاحًا، وفرحوا لأن الرقم عشرة قد تأخر بعض الشيء، لكن هذا الرقم قد تأخر في الحقيقة إلى أجل غير مسمى، فلم تنجب المرأة بعدها ولم تحمل أبدًا.

فلما مرت بضع سنوات دون أن تحمل امرأته مرة أخرى، فكر أبو البنات أن عليه أن يرضى بهذا الامتحان العسير من الله تعالى، وقال إن المال والبنون زينة الحياة الدنيا، فإذا حرمه الله من البنين فعليه بالأخرى، المال.

وقال في نفسه: ليست البنات شراً في كل الأحوال، فإذا أحسنت تربيتهن فسيكن مصدر خير ورزق كثير، ومن الممكن أن يساعدن في الكثير.

ولكنه عاد واعترف لنفسه:

- إن كل ما أتعب من أجل غرسه في بناتى لن يكون إلا كزراعة أرض الغير، لا ينالك منها خير، فستتزوج كل منهن ويكون خيرها كله لزوجها وأسرة زوجها.

وعاد يقول لنفسه: أما إذا تمكنت من المال فيمكنني أن أقلب الآية، وأجعل رجالهن في خدمتى، بل وأجمعهم في دارى، ويكون لي من البنين مثل ما لى من البنات.

ولما كبرت البنات واستدارت ملامحهن، فكر أبو البنات في أن بناته لا يوجد في البلدة كلها مثل أى منهن في الجمال ولا في المقدرة على العمل، وأن كلا منهن تسوى وزنها ذهبا. جميلات كن كأمهن، عاملات ماهرات أيضاً ككل نساء البلدة أو معظمهن، بارعات في ما يعملن، متقنات في كل ما ينتجن. قال أن خطته لن تكتمل إلا عندما يتخير بنفسه أزواجهن، وعليهن سوف يعتمد في المملكة الصغيرة التي يطمع في أن يكون ملكها، ولهذا فكر أن عليه أن يتخير لكل منهن من يناسبها من أبناء أخوته، ولماذا لا يتخير بنفسه؟ لا ينقصه المال اللازم لشوارهن، وكل من في البلدة يتمنى إحداهن لأحد أبنائه، ففيهن كل المميزات التي يطمح إليها أى أب وأية أم لابنهما. وهو يرغب في أن يزوج كلا منهن من أحد أبناء أخوته، وهم كثيرون، ولابد أنه واجد فيهم من يصلح لكل واحدة، هكذا فكر.

كانت البنت الكبرى ماهرة في الطبيخ، تخبز أفضل الخبز وأجوده، يضربون بخبزها المثل في القرية كلها، ويحلفون بفطائرها اللذيذة، كأن يقول أحدهم في معرض كلامه مثلا: "أقسم بفطائر البنت الكبرى لأبي البنات".

قال: هذه الطباخة تصلح زوجة لابن أخي البدين ذي الشعر الكثيف في كل مكان، رأسه وذقنه وشاربه وصدره وذراعيه وساقيه وماخفى كان أعظم، هو غني ويريد لابنه زوجة تطعمه أفضل أصناف الطعام وأحلاها، هذه تكون له وتناسبه، يهتم بكرشه ويريد لابنه زوجة أهم مؤهلاتها هى هذه.

وكانت الابنة الثانية تحب النظافة، مغرمة بغسل الأرض والشبابيك والثياب وكل ما هو قابل للغسيل، تأتى بنفسها بالزيت والمادة القلوية وتخلط ذلك بالدقيق وتصنع صابونا، تصبه في قالب ثم تقوم بتقطيعه قطعًا مناسبة وتتركها لتجف. (غاسلة الهم)

وكانت الابنة الثالثة بارعة في الغزل، تحلق للأغنام صوفها وتغسله وتكرده ثم تغزله في خيوط رقيقة متينة تبدو في رقتها كخيوط الحرير. (الغازلة)

وكانت الابنة الرابعة تنسج بمهارة، تجلس على النول ساعات وساعات دون أن تمل، تصبغ خيوط الغزل بنفسها بألوان زرعتها في ركن من الأرض خصصه لها والدها، وتصنع منها نسيجًا رائع الألوان مدمك الغرز. (النسَّاجة)

وكانت الابنة الخامسة حائكة ماهرة، تخيط الثياب البديعة لأخواتها، وترضى أذواقهن جميعًا. (الحائكة)

قال هؤلاء الثلاث لابد أن يكن في بيت واحد، فكل منهن تعمل ما تحتاجه الأخرى، قال هن يصلحن لأبناء الأخ الأكبر، يقاربنهم في السن، ويوافقنهم في المشارب، فهؤلاء يحبون العمل، وأحدهم يملك متجرًا يمكن أن يبيع فيه إنتاجهن، والآخر يرحل للتجارة بين الحين والآخر بين القرى، والثالث يعمل وزَّانا للحبوب، ويكسب كثيرًا من وزن الحبوب لأهل القرية والقرى المجاورة، ويتوسط بينهم وبين التجار، هذا أيضًا مناسب نوعا.

وكانت الابنة السادسة مغرمة بالدواجن والحمائم، تربيها وتعتنى بها، تجمع البيض كل صباح في سلتها وتهيئ للدجاجات كل السبل للرقاد على البيض، تضع للحمائم القدور الفخارية وتصنع منها بيوتًا معلقة على جدار الدار خشية الحشرات

والزواحف، وتزين لهم التزاوج بكل السبل، ربما أكسبها ذلك خبرة في الحب، وربما كان كل ما وراءه أن تجمع ما أنتجت وتذهب إلى السوق بالبيض والزغاليل. (الكلافة)

وكانت الابنة السابعة تحب الجاموسة، تغسلها يوميا وتحلبها، تذهب معها إلى الحقل وتعود، تصنع الزبد والجبن والسمن، وتخزن الجبن بمهارة، أخذت في البداية خميرة الجبن من جدتها التي قالت لها:

– هذه الخميرة أقدم مما تتخيلين، كل امرأة تأخذ الخميرة من أمها أو جدتها وتضيف عليها منذ أجيال وأجيال لا أعرف عددها، وكلما كانت الخميرة أقدم كانت أجود. (اللبانة)

وكانت الابنة الثامنة تحسن التزين والتكحل، تضفر شعرها ضفائر طويلة وتعقصها بشكل جميل ولا تتركها ملقاة على كتفيها في إهمال ككل البنات، ثم اكتسبت مهارة في إعداد بعض أنواع الروائح تستخرجها من جذور الكافور وبعض أنواع الزهور، وأتت بالكحل تطحنه وتخلطه ببعض الدهن والششم المطحون وصنعت من ذلك كحلاً بديعًا إذا وضعته امرأة في عينيها دمعت للحظتها فينتشر على جفنيها ملقيًا ظلاً فاتنا. (العايقة)

وكانت الابنة التاسعة والصغرى تحب الورق والقلم، عبثا قال لها هذا لا يسمن ولا يغني من جوع، لكنها لم تعرف إلاهما، قال: هذه همى، ماذا أفعل بها؟ من يتزوج مثل هذه؟ لا عمل لها إلا أن تقرأ وتخط، لا أحب أن أزوج إحداهن من أحد أبناء أخي جاحظ العينين، أذكر أنه طلبها يوما لواحد منهم، لكنى اليوم لا أرى أحدهم يناسبنى، فلا يبدو أن أحداً منهم يرضى بالعيش في مملكتى، والانطواء تحت جناح بيتى، ثم من قال أن أحدهم يرضى بها، لئن كانوا يغرمون بالعلم والمعرفة إلا أن الواحد فيهم حين يبحث عن الزوجة فلن يحب إلا امرأة تطبخ له وتغسل ثيابه وتنظف بيته وترعى حيواناته ثم أولاده. فكر كثيراً ثم قال: هذه هى أعمال الخدمة التى تولد من أجلها النساء، أما أعمال الفكر والحرفة فهى للرجال، فإذا سطت النساء على أعمال الفكر

والحرفة فماذا يفعل الرجال؟ هل يكونون خدمًا لنسائهم؟ هذه تكون أعجوبة الأعاجيب ونادرة الزمان، لا، لن تصلح هذه البنت كزوجة، إلا أن أكسر لها رأسها حتى تترك هذا الأمر. (الوراقة)

في صباح يوم الاثنين من كل أسبوع تخرج البنات الثمانية إلى السوق، تجلس كل واحدة في ركنها مع أبناء حرفتها، تجلس الأولى (الطباخة) وقد وضعت أمامها موقدًا وآنية مليئة بالزيت وبجوارها آنية مليئة بالعسل المصنوع من السكر والماء والليمون، وآنية ثالثة مليئة بالعجين اللين المتخمر، تبيع الزلابية لرواد السوق الذين عرفوا مهارتها فأصبحوا يتكالبون على زلابيتها اللذيذة الطازجة.

وتجلس الثانية (الغسالة) في ركن من السوق تباع فيه أنواع الصابون وأدوات النظافة، تضع إنتاجها من الصابون أمامها.

وتجلس الثالثة، والرابعة، والخامسة معًا (الغازلة والنسَّاجة والحائكة)، يبعن ما أنتجن في أسبوع من خيوط الغزل، وقطع النسيج، والمناديل المشغولة، وثياب الأطفال المحيكة الملونة.

أما السادسة والسابعة (الكلافة واللبَّانة) فتجلسان وأمامهما البيض والزغاليل والجبن، والزبد، والمش.

وأخيرًا تمكنت الابنة الثامنة (العايقة) من الجلوس في السوق تعرض إنتاجها من العطور والكحل، بعد وقت طويل قضته في التجربة إلى أن تمكنت من صناعتها بشكل جيد.

قال أبوهن في نفسه ذات مرة وهو يطوف بالسوق بعد أن انتهى من البيع واطمأن على كل منهن: هؤلاء البنات رائعات، ينتجن ويدخلن مالاً طيبًا إلى بيتي، لم تبق إلا هذه الخائبة التي لابد لها من صنعة.

قال لها ذات يوم وهي جالسة إلى الطبلية منحنية على أوراقها:

– أما من شيء مفيد يمكن فعله بهذه الأوراق الكثيرة؟

رفعت الوراقة رأسها، ولم تفهم تماماً، قالت:

– ماذا تعني يا والدي؟

قال يتذكر:

– عندما كنت صغيراً، كانت أمي تصنع لنا عرائس من الورق، تصنع قرطاساً كهذا – كان قد سحب ورقة من تحت يدها ولفها – ثم تقطع قُرب قمته فتحتين متقابلتين كهاتين – قطع الفتحتين – ثم تأتى بورقة أخرى وتصنع منها إسطوانة تنقسم إلى قسمين عند طرفها العلوى كهذه – وصنع الإسطوانة بورقة أخرى وقسَّم طرفها العلوى إلى قسمين – ثم تدخلها هكذا في الفتحتين فتتحركان كالذراعين، وكنا نقوم بتلوين هذه العرائس فتبدو كلعبة جميلة.

في كل هذا كانت الفتاة يصيبها الهلع على ورقتيها وإن لم تستطع ملاحقته في سرعة تصرفه بهما، بكت قائلة:

– أعدك يا والدى أن أفكر في طريقة أكون بها ذات فائدة للبيت كأخواتى، ولكن أرجوك لا تفسد أوراقي، فليست من أجل مثل هذا.

فكر لنفسه قائلاً: ربما هذه إن تتزوج وترحل إلى بيت زوجها تريحني من التفكير فيما يكون عليه الآتي من أيامها.

ولكنه عاد وقال: كيف لي أن أزوجها قبل أخواتها؟ لئن تزوجت قبلهن لكان ذلك هولاً عظيماً.

وتنهد:

– آه يابنتي، أنتِ همي.

المؤامرة

توقف المسلى متململاً، فالحكاية طويلة، والنهار لم يمض منه إلا القليل، ونسى الريِّس في غمرة الحكاية دوره، أو تناساه، والتقط الحكاء الخيط مكملاً:

- يقول الشيخ يوسف بن محمد بن خضر الشربينى كان الله له ورحم سلفه وخلفه الذين أنا منهم: فلا يختلف الشارح عن الماتن كعادة القاطن في هذا الفن والطاعن.

وأقول رغم الذي قال الشيخ الشربينى أنني أجد نفسي على اضطرار لأخذ مذهب الشارح حتى لو لم أختلف عن الماتن، فالمتن لي، والشرح بيدى، وأنا له..

بعد أن خرج الصغير شاتل الأرز في يوم الجماعة الأول تاركًا إخوته في بيت الأخ الأكبر وارث العباءة، بهت الجميع، ولم يقدر أحد منهم أن يكمل، لقد فكر كل منهم أن الجماعة أُجهضت في يومها الأول، وأنها فشلت في أمرها الأول، وأن أحداً من الأخوة لم يتمكن من سند الحكاية حتى النهاية، فكر وارث العباءة أنه لن يتمكن من حُكم أخوته هؤلاء بعد اليوم، وفكر الساهي أنه لن يتمكن من وضع يده على أرض أوسع من أرضه، وفكر أبو البنات أنه لن يقدر أن يتاجر في أرزه إلا بعيداً عن البلدة أو في "السر"، (كانت هذه بداية السوق السوداء بهذه البلدة).

وأما الفقير فقد فكر أنه لن يتمكن من الحديث مع أخيه الأكبر في مسألة العباءة، فقد اتَّجه الحديث وجهة جافة، وأصبح الطلب صعبًا أيًا كان نوعه.

بدأ الأخوة يخرجون واحداً بعد الآخر حتى لم يبق مع وارث العباءة إلا الفقير والساهي الذى تحته دواهي والبدين، قال الساهي للفقير:

– لماذا لا تذهب أنت أيضًا؟ ألا تنتظرك امرأتك؟

رد الفقير بمسكنة:

– لم تعد امرأتي تنتظرني، لقد يئست من عودتي يومًا محملاً بما يلزم حياتها وحياة أولادها، هذه المرأة طيبة في الحقيقة، لكنها تعبت، تعمل بلا كلل من طلعة الشمس وحتى آخر اليوم، ولا عائد هناك.

ابتسم وارث العباءة بطيبة قائلاً:

– طيب، تعال اجلس على أي حال، أقول لك؟ جهز لنا العدة.

تحلقوا أربعتهم حول الراكية، وأحضر الفقير بعض القوالح وأوقد النار، وبدءوا يدخنون الجوزة، وبدأت تهدأ النفوس.

قال الفقير محاذرًا:

– ماذا تظنه يفعل؟

قال وارث العباءة:

– من؟ آه، تقصد شاتل الأرز؟ لا أظنه يفعل شيئا.

قال الساهي:

– لابد من إيقاف هذا الأرز عن النمو على أية حال!!

قال الأكبر:

– هذه فكرة لا بأس بها، غير أنني ما كنت أرجو استخدام العنف أبدا.

قال الساهي:

– يا أخي، لا تأخذنك في الحق لومة لائم.

ساد الهدوء لحظات، بينما كان وارث العباءة يأخذ نفسًا عميقًا من الجوزة، والفقير يزيد من الجمرات، نفث وارث العباءة الدخان قائلاً:

– ليست هذه بداية مبشِّرة لجماعتنا، فما أن يموت الوالد حتى نبدأ بالفرقة والتحزب، هذا ليس طيبًا.

قال البدين:

– تحزب؟ أي تحزب؟ يا أخي ليس في حزبه إلا هو وحده.

– أنت تظن هذا، كان اجتماعنا اليوم في داري وأنا أنظر إلى الأخوة كنت أرى العيون تتقلب.

قال الساهي:

– ما أسهل هذا، ليس صعبا عدل ما انقلب، وسيعتدل كل شيء، المهم أن تكون القدوة، وأن يراك الجميع في أحسن صورة فيلتفوا حولك.

مس وترًا حساسًا:

– ها أنت تعود إلى الكلمات الطرشة، وماذا يعيب صورتي في نظرك؟

تنحنح الساهي:

– لا أقصد أن بك عيبا حاشا لله، بل أنت في أكمل صورة (هذا ضرب على أكثر الأوتار حساسية عند الكبار من الأخوة) ولكن هناك أشياء إن تمتلكها تمتلك الآخرين.

– ها أنت تعود إلى وصفي بالنقص، اسمع، لقد انتهى هذا الاجتماع توًا، وما عادت بي قدرة على المزيد من الشجار، فانته أنت أيضًا من هذا الحديث.

تدخل البدين ضاحكًا:

– هذا أطرش الكلام فلا تؤاخذه، ولكن يبدو أن لديه شيئا، فاستمع إليه.

تنهد الأكبر متململاً:

- قل.

قال الساهي الذى تحته دواهي:

- هو سؤال بسيط، أين زبيبتك؟

فتح وارث العباءة عينيه عن آخرهما:

- ماذا؟

- زبيبتك، الزبيبة.

- وما هذه؟

ضحك البدين حتى كاد أن يستلقي:

- كهذه التي في جبهة أخيك، إنه يريدنا أن نصبح مثله.

لم يبتسم الآخران، وتكلم الساهي بإصرار:

- إن التمسك بالشعائر يضع الجميع في طاعتنا.

قال وارث العباءة:

- ولكني فعلاً متمسك بالشعائر، وأقيم الصلوات، وأؤم الجمعة في الزاوية بنفسي، أنت تعرف هذا تماماً.

- فأين زبيبتك؟

- لم تتكون لي زبيبة يا أخي، ثم لماذا...

قاطعه البدين وهو سادر في ضحكه:

– يا وارث العباءة، فلتعرف أنه ما أسهل تكون الكالو الدماغي بتكرار بطح الجبهة أرضًا أثناء السجود.

– بطح؟

– نعم، أنت تضعها عند السجود، عليك أن تبطحها.

– أنتما قد جننتما.

قال الساهي:

– أخي هذا يعبر بطريقة ساخرة، ولكن لك أن تعلم أن هذا من أهم المظاهر الإيمانية في عصرنا.

سكتوا لحظات، وظل الفقير يقلب الجمر ساكنًا، وأخيرًا نطق قائلاً:

– يا أخي الأكبر، أقول لك الحقيقة، إن المظاهر لا تهم كثيرًا.

قال الساهي وكأنما قد انتبه فجأة:

– أنت، ماذا تفعل هنا؟ لماذا لم تذهب لبيتك؟

قال وارث العباءة:

– دعه، وجوده لا يضير.

– كيف؟ ها هو يتدخل بالنصيحة!!

– ولم لا نستمع إليه؟

– نستمع إليه؟ ولم لا نستمع لشاتل الأرز؟ كل هذا عبث.

قال وارث العباءة:

– ألا تخلط الأمور هكذا؟

قال الساهي:

– بل ربما أنت الذي لا تُقّدر المسائل حق قدرها.

– كيف تجرؤ؟

تدخل البدين فوراً:

– هذا الخطاب لا يصلح الآن، علينا أن نكون أكبر من ذلك لكي نفكر بشكل أفضل.

– أنا كبير بالفعل، لا تدفعاني إلى تصرفات لا أريدها الآن.

التفت البدين إلى الفقير:

– لِمَ لا تذهب الآن إلى بيتي؟ وتطلب من امرأتي أن تعطيك بعض الخبز والجبن، قل لها أنني أمرت بذلك، ثم أذهب بما تعطيك إلى أولادك.

قال وارث العباءة:

– ولماذا؟ هو في بيتي يا أخي، فليأخذ ما يشاء من هنا!!

نقل الفقير بصره بين الأخوين الكبيرين، ولم ينبس، فقط ابتلع ريقًا جافًا، واستدار ليخرج.

ناداه الأكبر: هل سمعت ما قلت لك؟

لم يرد الفقير وسار مبتعداً، هم وارث العباءة أن يقوم ليلحق به، لكن البدين أمسك بذراعه ليبقيه قائلاً:

– لا تهتم كثيراً، سنرضيه في وقت آخر، سأمر عليه بنفسي في آخر الليلة، المهم الآن أن نصل إلى قرار.

جلس وارث العباءة، وقال باستسلام:

– ماذا تبغيان؟

قال الساهي: نريد منك مظهر الأخ الأكبر.

وقال البدين:

– ومخبره أيضًا!!

– ومسلكه كذلك!

وعاد يسأل:

– لم أفهم شيئًا، ماذا تريدان؟

قال الساهي:

– علينا أن نتفق بدايةً على أن الوالد رحمه الله، ولا يجوز أن نتحدث عنه بغير ذلك.

قال الأكبر:

– هذا بديهي.

قال البدين:

– ثم علينا أن نتفق على أن ما قاله الوالد – رحمه الله – وما فعله هو قدوة لنا في كل تصرفاتنا.

قال الأكبر:

– وهذا ما جئنا لنتفق عليه اليوم، ولكن حدث ما حدث!!

قال الساهي:

– إذن علينا بالجهاد من أجل تحقيق ذلك.

قال وارث العباءة:

– لا أفهم!!

قال البدين:

– على الجميع الطاعة لأمر وارث العباءة.

قال وارث العباءة:

– كان هذا هو المفترض، ولكن ماذا تفعل في الصغير المارق شاتل الأرز؟

قال الساهي:

– علينا أن نفكر في حلٍ لذلك، ولو بالقوة.

قال البدين:

– بل يجب أن نكون أكثر ذكاء، سنحل المسألة، وربما بالقوة، ولكن علينا بدايةً أن نجد السبب.

قال وارث العباءة:

– لا أجد سببًا كافيًا في الحقيقة لاتِّباع القوة مع الصغير، إنما هو على شيء من التمرد، ولكن ربما مع بعض الحق.

بهت الساهي:

– كيف تقول ذلك؟ لا يجب أن تقوله أبدا حتى لو كان حقيقة، فما الحق الذي له؟

– حق الحفاظ على ما لديه، أرضه وزرعه وعيشه، أليس هذا حقًا؟

قال الساهي:

– ربما، ولكن حقه هذا يزعزع اجتماعنا كأخُوة!!

وقال البدين:

– نعم، علينا إذن أن نبحث عن سبب آخر، علينا أن نفكر في موضوع أقوى لصالح الجميع، نحن وجميع الأخوة، ومستقبل الحياة في هذه القرية.

بعد ذلك ساد صمت ثقيل، غرق الأخوة الثلاثة الكبار في فكر عميق، كلٌ يحاول الوصول إلى حل أفضل، تلك الليلة انتهت بما لم ينتظره كل منهم، وفى الليالي الآتية ليلة بعد ليلة تنام العيون على فكرة أنهم لم يقدروا على التحكم في مثل هذا الأمر الصغير.

نام أهل القرية الصغيرة حزانى، لقد مات الوالد، ولم يتفق الأبناء، وفقد وارث العباءة القدرة على القول.

اللئيم

اللئيم ذو الشعر المجعد والحاجبين الكثيفين المتصلين.

لم يكن اللؤم طبعًا سيئًا، وخاصة أنه في هذه القرية كان يتصف به دائمًا من يبدو طيبا، وهكذا كان اللئيم دائمًا أيضًا.

ورغم أن الأخوة كانوا يستخدمون اللئيم أحيانًا بشكل لا يعيبه هو نفسه، عندما يندفع إلى قول أو فعل يرى مصالح بعضهم ضد البعض الآخر، إلا أنه كان طيب القلب، وخاصة تجاه بنت أخيه الصغيرة، الوراقة، وعندما وقفت الوراقة تسأل أعمامها واحدًا واحدًا ماذا حدث في يوم اجتماعهم؟ وإلام انتهوا في أمر عمها الأصغر شاتل الأرز؟ نظر جميع أعمامها إلى أنها تتدخل في أمر يخصهم وحدهم، لكن اللئيم فكر أن الوراقة تهتم بأهل هذه القرية، وأن الحب يملؤها، لذا طيب خاطرها، وقال لها: لا تقلقي يا ابنتي، كل شيء سيجد حلاً في يوم ما.

قالت الوراقة بحزن: كان عليهم أن يضعوا الحل في نفس يوم اجتماعهم، أما الآن، فلا أحد يعلم ماذا سيكون من أمر قريتنا، تعرف ياعمي؟ لا أظن اجتماعًا آخر بنفس هذا القدر سيكون في قريتنا أبدًا بعد اليوم.

قال اللئيم: لا تشغلي بالك يا ابنتي، عليهم أن يعملوا هم في ذلك.

قالت: لن يعملوا، وإذا لم نعمل نحن، فلن يحدث أبدًا.

كان اللئيم يسكن دارًا صغيرة، تلتصق بعدة دور أخرى يفصل بين الدار والدار جدار واحد، فقد اعتاد أهل هذه القرية – توفيرًا للنفقات، أن يعتمد واحدهم على جدار

الآخر، فيتخذه ساترًا من جهته، ويبني باقي جدران بيته، ويكون معروفًا عادة لمن الجدار، أما اللئيم فقد بنى داره بين ثلاثة جدران، أولها دار الطيب والذي بنى وحده جدرانه الأربعة، وبنى البنا البيت الثاني جنوب البيت الأول وملاصقًا له ومتخذًا جداره الجنوبي جدارًا شماليًا، وحدث أن الحداد بنى بيتًا شرق بيت البنا، تاركًا فراغًا بينها للمرور ولجلب الهواء. فجاء النجار، وكان قد أحب الشمال أيضًا، فبنى بيته شمال بيت الحداد وملاصقًا له ومستخدمًا جداره الشمالي. وعندما مر اللئيم يومًا ورأى الفجوة بين البيوت الأربع قال لنفسه:

– لو بنى هنا بيت خامس لبنيت بيتا لا يكلفني سوى جدار واحد.

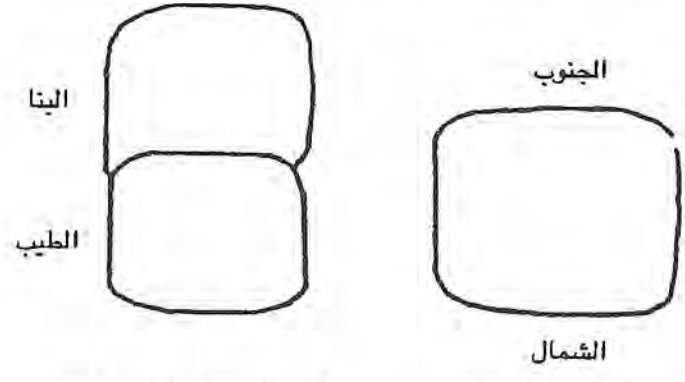

هكذا جاء الطيب أولاً وبنى داره ثم جاء البنا وبنى داره متخذًا من جدار الطيب ساترًا

وفي مساء ذلك اليوم بينما كان الراوي يحكي على ربابته، جلس اللئيم يفكر من الذي يمكنه أن يبني ذلك البيت الخامس، كان ذلك عندما قال الفارع أنه يريد أن يبتني دارًا ينتقل إليها مع زوجه وبنيه، كان الفارع في الوقت ذاته لا يزال مقيمًا في البيت الكبير، وكان قد حادث أباه في أمر بناء دار صغيرة لنفسه، فبارك الوالد ذلك، كان على فراش المرض ويرغب في إرضاء الأخوة، وخاصة أن الفارع كان قريبًا إلى قلبه بصفة خاصة، لما كان لأمه من مكانة لديه، وكانت امرأته تشكو من سخرية بعض

حمواتها لعرج في ساقها، عندما كان الفارع يحدث جاحظ العينين وهما جالسين في أقصى الزاوية، كانت أذن اللئيم تتابعهما، وما لبث أن اقترب منهما وألقى إلى الفارع بكلمات قليلة، لكنها كانت كافية، قال اللئيم:

– لِمَ لا تبني بيتًا بين بيتي البنا والحداد، بينهما فراغ يكفي، ولن يكلفك كثيرًا لأنك سوف تعتمد على جداريهما.

قال جاحظ العينين إذ ذاك للفارع:

– ولِمَ لا؟ هل تفهم قصد اللئيم؟

قال الفارع باسمًا:

– ومن لا يفهم اللئيم يا أخي؟ أنت تعرف أنه فقير اللؤم.

لم يغضب اللئيم لهذا الوصف، فقد اعتاد عليه من إخوته في أكثر الأحوال، ثم إنه كان لا يهتم كثيرًا بغير أن يوفق إلى ما أراد.

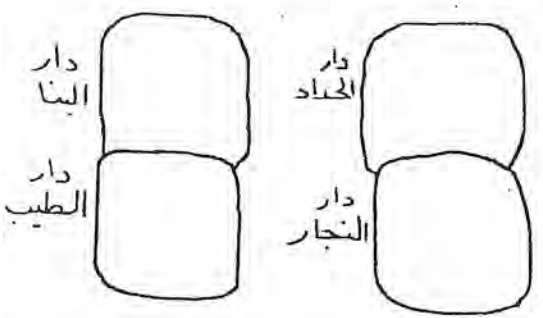

لم يلبث الفارع أن بنى بيتًا بين بيت البنا وملاصقًا له ومستخدمًا جداره الغربي من ناحية، وبيت الحداد – مستخدمًا جداره الشرقي – من الجهة الأخرى، وكان هذا يعنى أن الفارع قد استخدم جدارين موجودين بالفعل ولَم يبن سوى جدارين شمالاً وجنوبًا، فكر الفارع قائلاً لنفسه:

– ولِمَ لا، يريد اللئيم في النهاية أن يبني لنفسه داراً بأقل الجدران، ولأفترض لنفسي أنه، مع كثرة عياله، يحتاج لمثل ذلك، كان أبي يقول إن جاءك الغصب فاعمله جميلة.

وهكذا كانت البيوت الأربع قبل بناء الفارع لداره

وبنى البيت.

وهكذا تبقت قطعة من الأرض تحيطها جدران ثلاثة هي: جدار الطيب الغربي، وجدار الفارع الشمالي، وجدار النجار الشرقي، وهنا بنى اللئيم بيته معتمداً الجدران الثلاثة، فلما وجد أن مساحة بيته صغيرة فكر أن يبني طابقًا آخر، فاستأذن الأخوة الثلاثة أصحاب البيوت الملاصقة لبيته أن يصعد بطابقه الثاني فوق جدرانهم. وأصبح لا أحد منهم يستطيع أن يهدم جداره، لأنه هكذا يهدم جدار الطابق الثاني في بيت أخيه، وكان هذا أقصى ما يستطيع من اللؤم في الحقيقة.

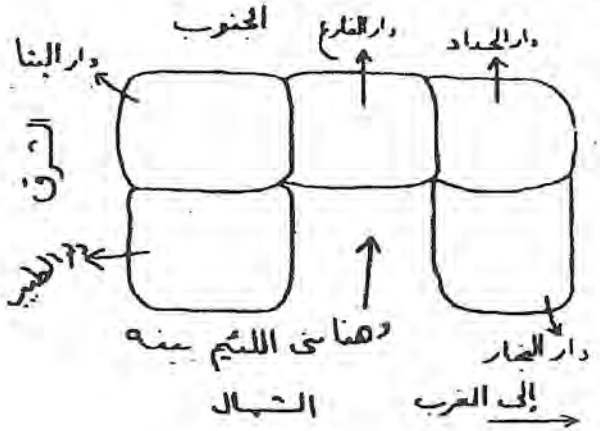

هكذا بنى الأخوة بيوتهم وهذا بيت اللئيم في الوسط

وقال الفارع:

– أعرف قصد اللئيم هذا، ولكن ماذا يضير؟ في الحقيقة هذا أقصى ما يستطيعه من اللؤم.

وكانت هذه حقيقة، لكن الأخ البدين لم يكن ليفكر بنفس الطريقة، وإنما فكر هكذا:

– لو كانت لي دار اللئيم لامتلكت إخوتي هؤلاء، وعرفت أسرار بيوتهم، وتدخلت بينهم وتمكنت منهم.

ثم قال: هذا اللئيم فقير اللؤم، ما أسهل أن يميل إلى طريقٍ آخر طمعًا في جدار رابع، وأظن أن الأمر سيكون في غاية السهولة.

وفكر أيضًا: في الحقيقة أن دار اللئيم أهم هذه الدور، فهي أوسطها، وتتمكن منها، ثم أنها تواجه الهيش، ومنها يمكن السيطرة عليه، وهناك يمكن للغادر أن يأتيني متى أريده.

وعاد يقول لنفسه: في الحقيقة أريد هذه الدور كلها، فهناك الفارع، وهناك البنا أيضًا، والذي لو تزوج من الوراقة لما استطعنا أن نقف أمام اجتماعهما. هذا البنا، ولا تنس أنه ابن جاحظ العينين أيضا.

كان ذهنه يلح عليه دائمًا: الوراقة تسأل كثيرا فيما لا يجب السؤال عنه. والبنا يعمل ويبني للجميع، ويومًا ما سيبني ذلك البناء القادر على إجابة تلك الأسئلة. أما الفارع... على أيةِ حالٍ هي بيوت طيبة، ولِمَ لا أمتلكها أنا؟

بعد مغرب يوم ما، اتجه البدين إلى دار اللئيم في زيارة ودية، طرق البدين الباب، فتح اللئيم بابه وأدخل أخاه الذي يكبره مرحبًا به، نظر إلى امرأته فأسرعت تأتي بالشاي، وجلس أولاده أمام عمهم مرحبين، قال البدين:

– يا الله، لما كنت لم تزرني منذ فترة، قلت أسأل عنك.

قال اللئيم:

– يا أهلا بك، تعرف أنني كنت مشغولاً بالبناء، ثم شغلنا ترتيب الدار، الأمر يستغرق منك وقتًا لتعتاد على دار جديدة، إنك على أيةِ حالٍ لم تزرنى في داري هذه منذ بنيتها!

كانت هذه هى الفرصة التي ينتظرها البدين، وقد جاءت أسرع مما يتوقع:

– هل أنت مرتاح في هذه الدار يا لئيم؟

قال اللئيم:

– حياة والسلام، ماذا نبتغي سوى الستر؟

قال البدين:

– تعرف؟ عندما كنت تتحدث عن بناء هذا البيت، كنت أظنه أكثر اتساعًا!!

قال اللئيم:

– هو أكثر اتساعًا مما كنا فيه من قبل على أيةِ حالٍ.

"مما كنا فيه" يعني بيت الوالد، والذى كان أكثر رحابة من أي مكان آخر، إلا أن العدد الذي كان يقيم فيه كان قد وصل إلى حد التخمة، ولهذا كانت هذه الخروجات إلى بيوت أخرى قريبة.

فكر البدين أن يحوّل دفة الحديث لبعض الوقت، لم يكن يريد أن يفهم اللئيم بسرعة ما جاء من أجله، ولكي لا يأخذ حذره كما هو المعتاد في مثل هذه الأحوال، قال البدين:

– وكيف حال حقلك؟

قال اللئيم:

– لا أشكو، زرعت قطنا وأصابته الدودة، لكن أولادي يذهبون كل صباح يلمون اللطع، الحمد لله على أيةٍ حالٍ.

ابتسم البدين ملوحًا بالكلمات:

– الدودة قليلة هذا العام...

ضحك اللئيم ضحكة من يحمل الهم ولا يبالي:

– يبدو أن قليل الحظ مثلي يجد العظم في الكرشة؟؟

جاءت امرأة اللئيم تحمل صينية الشاى، في الأكواب اللامعة المذهبة التي لا تخرجها إلا عند مقدم ضيف عزيز، نظر البدين إلى زوجة أخيه وقال وهو يتناول الشاي من يدها:

– أحب شايك يا امرأة أخى، يا أختى العزيزة، أحب أيضًا كيف تنظمين الأكواب في الصينية، تهتمين بكل شيء.

قالت المرأة باسمة:

– أهلا بك يا ابن عمي في كل وقتٍ.

وعاد البدين يلتفت إلى اللئيم:

– لقد حباك الله بامرأة نادرة يا أخي.

قال اللئيم:

– نحمد الله على كل حال، أنها نوارة بيتي يا أخي، والظل الذى نستظل به أنا وأولادي.

جلست المرأة متربعة بالقرب منهما وقالت:

– ما هذا كله، لم أسمع مثل هذا المدح منذ زمن، فماذا تقصدان على كل حال؟ الشاي وقد عملته، تأملان في غداء؟ ولِمَ لا؟ لكن فيما عدا ذلك عليكما أن تفصحا!!

ضحك البدين، وقال اللئيم:

– هكذا هى، لا تتلقى المديح بقبول حسن، وهو عيبها الوحيد في الحقيقة.

ضحكت المرأة قائمة:

– من المدح إلى ذكر العيوب، الأفضل لي أن أقوم إلى حالي.

قال البدين وهو لا يزال يضحك:

– وماذا تفعلين؟ اليوم انتهى ولم يعد إلا التسامر في مساء كهذا؟

قالت وهى تتجه خارجة من المقعد:

– هكذا يقول الرجال دائماً، لكن النساء لهن عمل في كل وقت وأوان.

وقال البدين ملتفتا إلى اللئيم:

– ولمن تبيع قطنك؟

قال اللئيم:

– ولله قد أقرضني أبو البنات التقاوي، وسوف يأخذ القطن، بناته يقمن بالغزل والنسيج.

قال البدين:

– أى والله، يأكلها والعة أبو البنات هذا، وهل ترتاح في التعامل معه؟

قال اللئيم:

– لا أشكو، ولا يوجد غيره على أيةٍ حالٍ!!

قال البدين:

– كيف تقول هذا؟ إن كان لا يرضيك فتعال إلىّ، وأنا أجد لك مخرجا!!

قال اللئيم:

– والله كلام جميل، لكن ما بالكلام يصلح الحال، أنت يا بدين تبيعه قمحك، فكيف تجد لي مخرجا؟

لم يهتز البدين ولا هزةً واحدة:

– والله أتصرف لك لو لزم الأمر!!

نظر اللئيم إلى البدين قليلا ولم يرد.

أعاد البدين:

– قل إذا كانت لديك مشكلة، وانظر ما يكون.

قال اللئيم:

– كيف تفعل هذا؟

– أتظنني لا أقدر؟

– بل أظن أنك تقدر، ولا أعرف في الحقيقة لماذا لا تفعل؟

– لأنه هكذا تعارفنا، نحن نزرع، وهو يتاجر في الأسواق البعيدة، لكن لو طفى يمكن أن نتصرف في الأمر.

– على أيةٍ حالٍ لا أعرف إن كان طاغيا، فلم أعامل غيره!

في نظرة البدين ضيق لكنه تصور أن يغير مسار حديثه:

– وهذا البيت، هل يكفيك؟

قال اللئيم:

– حياة والسلام، ماذا نبتغي سوى الستر؟

بدأ الكلام يتكرر، أصبح الأمر بحاجة إلى مثير جديد، قال البدين ببطء:

– كنت أريد بناء بيت لي، فهناك أرض تكفي جنوب البلدة، وقد رميت أساسًا، ولكن..

– ماذا؟

– المكان متسع، وليس لي من الأولاد سوى ثلاثة كما تعلم.

– الاتساع خير.

– نعم، لكن المرأة عادت تشكو من المكان البعيد عن أهلها، وعن عدد الخدم المطلوب لبيت كهذا، في الحقيقة لا تنوي المرأة الذهاب إليه وترك بيتها، لذا أفكر في التخلص منه، ماذا أفعل ببيت كبير لا تسكن فيه.

– ولماذا أردت بيتًا آخر؟

ربما كان هذا هو السؤال الذي ينتظره البدين طوال الوقت:

– الأمر أنني أريد مكانا لمجالسة أخوتي، بيتي لا يكفي لهذا، فلما أردت بيتا أكثر اتّساعًا، لا ترغب المرأة فيه، كل ما أتمناه الآن بيت صغير يكفى لنتجالس فيه معا، ندخن بعض الحشيش في أوقات صفائنا، وندبر فيه أمورنا بعيداً عن أسماع النساء والعيال، وتواتر الأقوال بينهم الذي لا ينتهى إلا بمشاكل لا نتوقعها، بيت نجلس فيه بعيداً عن بيوتنا فلا يكون هناك من يقول جئتني وجئتك وما إلى ذلك، بيت... هل تعرف...؟

ونظر حوله في براءة وهو يكمل:

– بيت كهذا يكفي.

قال اللئيم ولم يسعفه لؤمه في هذه الحال:

– وما عيب البيت الكبير في هذا الغرض؟

سكت البدين قليلاً، ثم أجاب:

– البيت الكبير يحتاج لامرأة، العناية به صعبة وبحاجة للكثير من الخدمة، أما البيت الصغير فما أسهل أن تطلب من الفقير أو غيره أن ينظف هذا المكان أو ذاك..

قال اللئيم حائرًا:

– ربما كان عندك حق في هذا.

وسكت، ما الأمر؟ جعل رأسه يدور، هل يريد البدين أن يأخذ بيته هذا مقابل ذلك البيت الكبير؟ هذا ما يرمي إليه الحديث، لكن هل فهم تماما؟

قال بشكل جعله يبدو مازحًا:

– الأمر يبدو وكأن كلا منا يحتاج بيت الآخر؟

قال البدين ببطء:

– هو هكذا!!

امتلأ اللئيم دهشة، ربما لا تتوافق الدهشة مع اللؤم، لكن أنى له أن يتصور أن البدين هذا، أخاه الأكبر، الذى تمتلئ داره زبداً وعسلاً، يريد داره، ومستعد أن يبادلها بدار أكبر، وأكثر قيمة، وأرحب وأوسع، فما العمل؟ لابد أن يفكر في الأمر جيداً، ماذا في داره أفضل من تلك الدار الأخرى؟

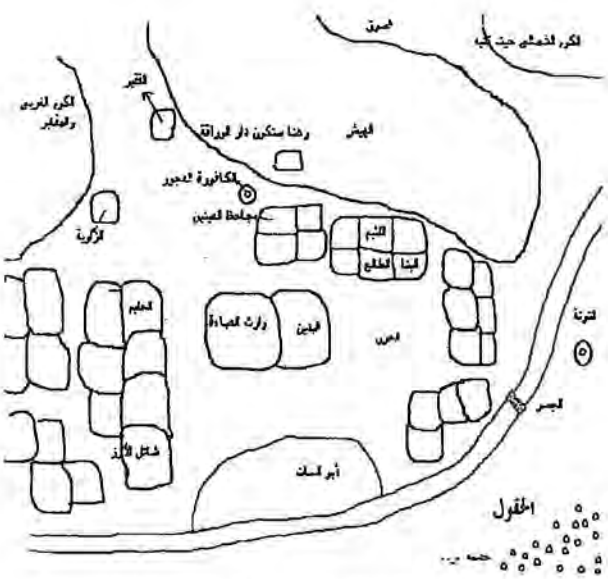

القرية التى شهدت وقائع الرواية

الساهي

يقول لنا التاريخ المكتوب، والقصص المُحكى، أن الأخ الأكبر دائمًا طيب القلب، أحادي التفكير، يقنع بالمغانم الصغيرة القريبة، ونادراً ما ينظر إلى ما وراء الستار.

وكذلك يقول لنا كلاهما - أعني التاريخ المكتوب والقصص المحكى - أنه - أي الأخ الأكبر - غالبًا ما يتمتع بنرجسية عالية، ينظر فقط إلى حدود أنفه، وقد لا يرى، أو لا يهتم بأن يرى، ما هو أبعد منها.

كان هذا هو المحور الذى يدور حوله بناء الأخ الأكبر، وكذا فهم الأخوة أن أخاهم هذا لا يهتم إلا بالأهداف القريبة القطوف، ربما أنه كان طيب القلب حقا، ولهذا كان من السهل على الأخ الثالث - الساهي - أن يوجهه أحيانا بشكل غير مباشر، كما كان من السهل على الأخ البدين أن يقنعه دائما.

وهكذا لم يكن من السهل على الأخ الأكبر - وارث العباءة - أن يترك الأمور تمر بسلام، فنصيحة الأخوين الآخرين كانت أقرب وأكثر حبكة.

كان الأخ الثالث - الساهي الذي تحته دواهي - يملك مزرعة صغيرة، ومنحلا يدر عليه بعض المال اللازم لجعل الحياة أفضل، لكن مزرعته الصغيرة كانت مصدر همٍ له، فهو إذا هم بزراعة أحد المحاصيل الهامة قيل له: كم ستنتج هذه المزرعة الصغيرة؟ الأفضل لك أن تزرعها ببعض الخضر.

ولم تكن زراعة الخضر سيئة، إلا أن النساء دأبن على عادات سيئة في هذه القرية، فقد ترسل إحداهن أحد صبيتها إلى أي مزرعة من مزارع الخضر في الصباح ليقول لصاحب المزرعة:

– تقول لك أمي نريد عودين فقط من الملوخية.

أو مثلاً: تقول لك أمي نريد حبتين من الطماطم.

وهكذا، لا يستطيع أن يرفض مثل هذا المطلب، فماذا يضير محصوله لو نقص عودين من الملوخية أو حبتين من الطماطم؟ إلا أنه بالطبع لا يستطيع أن يعطي مثل هذا الصبي عودين بالعدد هكذا، وإنما عليه أن يقدر ما يكفي أسرته ليوم على الأقل، لوجبة واحدة، فيعطيه له، فماذا يتبقى له في آخر الموسم ليبيعه؟ لولا هذا المنحل لمات أطفاله جوعا، وكم كان يتمنى لو يستطيع أن يزرع أرضه بمحصول هام مثل القطن أو القمح، أو حتى الأرز، لو كان ذلك ممكنا، محصول لا يسرقه الأطفال ولا ترسل إحدى الأمهات في طلب بعضه.

فكر الأخ الثالث هذا في نفسه: من منا أولى بأن يكون لديه مزرعة كبيرة؟ أخي الأصغر هذا ليس لديه أطفال وأطفالي كثيرون. وفوق ذلك فهو لا يبدو قادراً على تحمل مثل هذه المسئولية، المزرعة الكبيرة مسئولية، فلو كنت أنا الذي أملكها، ما قمت بزراعة محصول يجعل روح أبي المسكين تهيم بلا راحة، أما هو، فقد زرع الأرز دون أن يفكر لحظة واحدة في أبيه والذي كان مريضا وقتها، ولا نعرف، ربما أن أحدهم تحدث بذلك أمام الوالد في مرضه فزاده مرضا، وربما أن معرفته بمثل هذا الأمر بالذات كان سبباً مباشراً لوفاته.

عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير لم يطق الكتمان، قال لنفسه: هذا أمر لا يصح السكوت عليه، هذا مثل الشهادة التي يأثم كاتمها. لابد من بحث هذه المسألة مع وارث العباءة، فهو كبيرنا، وإليه يعود الرأى الأول في كيفية حل هذه المعضلات.

خرج من بيته قاصداً بيت أخيه، فلما دخل عليه وجده جالسا مع بعض أبنائه. كان الوقت بعد الغروب وقد عادوا لتوهم من الغيط، ورأى وارث العباءة في وجه الأخ الساهي ما يوحى بأنه أتي في أمر خطير، فطلب من أبنائه أن يتركوهما وحدهما، وأقبل عليه يسأله، فبادره قائلاً:

- لقد اكتشفت مسألة في غاية الخطر، لو صحت...

قال ذلك في لهجة محاذرة، وتمهل قليلاً، إلا أن وارث العباءة تعجَّله:

- ما هي؟

ورأى الساهي أن المستقيم أسرع الطرق وأكثرها فاعلية:

- أن الأخ الأصغر قد يكون السبب المباشر في موت أبينا.

- ماذا تقول؟

استمر وكأنه لم يقاطع:

- فقط هناك سؤال يجب بحثه، هل ذكر أحد أمام أبينا - رحمة الله عليه - في أيامه الأخيرة أن أخانا الأصغر قد شتل أرضه أرزًا؟

- يبدو أنك قد جننت، بل وفقدت إيمانك بالله تعالى، هل تأتي اليوم لتنكر أن أباك قد مات في الوقت والأوان الذي أراده الله له؟

تسلح الساهي بالصبر على هذه الكلمات، فلم يكن يريد أن يقع الآن في وارث العباءة، ولذلك فقد حاول بهدوء شديد:

- لقد أخطأت فهمي، فمن هذه الناحية ونعم بالله، أما من ناحية أن بعضهم قد يقصد دفعه إلى الموت، فهذا أمر آخر!

- بل أفهمك تماما، يبدو أنك لا تعرف بم تقول، ويبدو أنك قد كبرت وخرفت.

لم يتمالك الساهي نفسه عند هذا الحد:

- أنا كبرت وخرفت؟ فماذا عنك يا أخي الأكبر العاقل؟

- هل وصل بك الأمر لإهانتي في بيتي؟

- أنا ما أهنتك وإنما رغبت فقط أن أرد عني شرك.

في هذه اللحظات تخلى الأخوان عن حذرهما المعتاد، فانطلق كل منهما يقول ما بدا له، وبدأ صوتاهما يعلوان:

- اخرج من بيتي!

- تطردني يا أخي الأكبر؟

- أطردك نعم، وماذا تبغي مني عندما تأتيني بمثل هذا؟

- ألأني عرفت الحقيقة؟

- أنت مجنون!

رغم التهمة الكبيرة من وارث العباءة، إلا أن الساهي أحس بأنه سيفقد الكثير لو انصاع لما يحس أنه يجب عليه بمزيد من الصياح، والذى قد يجلب من لا يرغب كل منهما في وجوده:

- اعط نفسك فرصة لسماعي إلى النهاية!!

- وماذا أسمع أسوأ مما قلت؟

- أنا لم أقل بعد، وعليك أن تسمعني، فأنت كبيرنا!!

- إذا فكرت قليلا فيم تقول سترجع عن كل كلمة!!

- لا أستطيع الإساءة إليك بأي كلمة، إنما عنيت ما قلت، ربما يكون هناك من تسبب في موت أبينا.

- هل تعني أنني كنت سببا في موت أبيك؟

- ها قد أفصحت عما في نفسك، ومن على رأسه بطحة يتحسسها!

- وها أنت تفصح عن جنونك، اغرب عن وجهي.

- أنا ما جننت، ولكن ما هذا ما جئت من أجله!

– ولا رغبة لي لمعرفة ما جئت من أجله، أنت لا تعرف كيف تفصح دون أن تجرح.

– يا أخي العزيز، كل ما كنت أريد أن أعرفه، هل أخبر بعضهم أبانا بموضوع شتل أخيك لأرضه أرزا؟

– لا أعرف، فأنا لم أكن برفقته طوال الوقت، ولكن لنفرض أنه حدث فماذا يعني هذا؟

– ماذا يعنى؟ هل تسأل ماذا يعني؟ لو حدث هذا لكان هو الأمر المباشر الذي أدى إلى موت أبيك كمدًا وحزنا.

فكر الأخ الأكبر قليلا، هدأت نفسه وبدا على وجهه شبح ابتسامة، قال متأنيا:

– هذا أمر خطير، كيف توصلت إلى مثل هذه الفكرة؟

فاض الكيل بالساهي، فلا يرد مثل هذه التهمة التي وجهها الأخ الأكبر وارث العباءة له سوى الصياح، وقديما قال الحكماء من أهل القرى في بر مصر المحروسة: خذوهم بالصوت وإلا غلبوكم، الصوت أم السوط؟ الفارق ليس كبيراً في النطق، أما في المقصود فهو.. حسنا، لا أظنه كبيراً أيضا، ما علينا، المهم أن الذي حدث الآن هو أن الأخ الثالث قد رفع صوته في وجه أخيه، وكان هذا أمرًا غير طيب بالمرة، لكنه – وهو الرجل المؤمن ويعرف ذلك جيداً – لم يجد سوى هذه الطريقة التي ظن أنها ستكون مقنعة تماما، قال في صياحه هذا:

– كيف تقول لى هذا، وأنت تعلم جيدا أنني رجل لا يعنى سوى بما في صالح الجماعة، وكلكم يشهد لي بأنني لا يهمني سوى الحق الذي حض عليه ديننا الحنيف، كيف تقول لي هذا؟ ألا تعلم أنني أهتم فقط بتبرئة ساحتي في يوم عظيم، يوم نقف بين يدي الديان، كل ما أبحث عنه هو أن أطمئن إلى أن أبي رحمة الله عليه لم يقتل وقلت أننى قد عرفت شهادة يجب ألا أكتمها، سأسألك سؤالاً واحداً، وأستحلفك بالله، وأنا أعلم أنك رجل يحرص على أداء الصلاة، أن تجيبني عنه بأمانة..

رأى الأخ الأكبر في هذا القول إهانة بالغة، فهو لم يكن في أى يوم غير أمين لكي يستحلفه بكل هذه الأيمان، وأضف إلى ذلك أنه كان قد أحس بضيق بالغ من هذا الصوت المرتفع في وجهه، ولهذا فقد قاطع أخاه – ورغم أنه لم يكن يحب مقاطعة الآخرين – قائلا:

– ماذا رأيت قبلا من عدم أمانتي لكى تستحلفني هكذا؟ ياأخي لولا أنك في بيتي..

بيته؟ أثارت هذه الأخ الثالث بشدة، منذ لحظات كان يوجه له طرداً مباشراً من هذا البيت، والآن يعود ليهدده بالأمر نفسه، "بيته" هذا خاصة كان بيت العائلة، ولولا أن زوجته دأبت على الشكوى من زوجات الآخرين من الأخوة، ولولا أن العدد كان أكبر من أن يستوعبه بيت واحد، لولا هذا وذاك وأسباب أخرى لكان الآن شريكًا في هذا البيت لهذا الأخ الأكبر الذى ورث عن الأب أفضل الأشياء، ومنها – وليس آخرها – هذا البيت الذى ادَّعى أن الأب قد باعه له ولم يترك لأحد فرصة الاطلاع على الحجة التى ادَّعى ضياعها، ولم يكن في مقدور أحد ساعتها أن يترك حزنه على أبيه ليجادل في ذلك كثيراً، خاصة وهم الذين أرادوا بشدة إظهار مدى اجتماعهم وتضامنهم في حدادهم. وانتهز هذا الفرصة واستقل بالبيت، حقًا أنه كان مستقلاً بالبيت فعلا قبل موت الأب، ففي السنوات الثلاث الأخيرة لم يكن يعيش فيه مع الوالد سواه، ولكن في مسائل الميراث هذه كل شيء يأخذ حقه من البحث، وكل حي يأخذ حقه من الميت، وفي هذا الموقف الآن، كانت له – أعني للأخ الثالث، الساهي – حقا فرصة ليقول ما يعتمل في صدره بخصوص هذا الأمر بالذات، فقال في حدة زائدة:

– بيتك؟ هل هو بيتك حقا؟ أنت لم تثبت ذلك حتى الآن.

كان صياح الثالث لأول مرة حرصاً على كرامته، أما الآن فهو حرص على شيء آخر، ولكن الصياح عموماً قد فعل شيئا آخر على أية حال.

كان الأخ البدين ذو الشعر الكثيف قد اتخذ بيته بجوار بيت الأخ الأكبر وارث العباءة، فهذا الأخ البدين ذو الكرش والشعر الكثيف كان لتوه يبدأ جلوسه لتناول الوجبة الرئيسية، وقد كانت هذه الوجبة هى أهم وجبات اليوم في القرية بشكل عام، وعند هذا الأخ بشكل خاص كما ولابد أن نتوقع، ورغم ذلك فقد كان الصوت شديد الوضوح كأنما كان نداء له بشكل عاجل، وقد كان من الصعب ألا يلبي النداء، قام تاركًا مائدته المفضلة، ولم يكن ذلك طيبًا، خرج إلى بيت وارث العباءة المجاور لبيته، دخل إلى الشرفة الأمامية التي جلس فيها الأخوان الأكبران - لقد كان ترتيبه الخامس - في اللحظة نفسها التي كان الأخ الأكبر وارث العباءة يتهيأ للرد على الاتهام الثاني من الأخ الثالث فأسرع يوقفه قائلا:

- ما هذا ياأخوي الكبيرين؟ هل نصل في تعاملنا إلى هذه الدرجة؟ لقد تركت الطعام وجئتكما، صياحكما أعلى من أن لا يسمع، أهذه كانت وصية الوالد رحمه الله؟

وعند ذكر ذلك، ولأن كُلاً منهما كان قد انساق خلف الكلمات دونما تفكير في العواقب، فقد وافق كلاهما هذا الأخ بأن خفض رأسه مظهرًا ألمه ومتمتمين في وقت واحد: رحمة الله عليه.

كان هذا هو التسليم الأول، وهما لم يفعلاه انهزاما، بل عن ثقة بأن لكل منهما حاجة للآخر، فكر الأخ وارث العباءة أن صياحه في وجه أخيه كان حقيقة لأنه كان يفكر في الطريقة المثلى لحل مشكلة عناد الأصفر، فعندما نطق الأخ الثالث بفكرته الشيطانية، وجد للتو أنها هى الفكرة المثلى، رغم قسوتها، هذا ما جعله يثور في الحقيقة، خوفه أن يكون قد انكشف، والأمر الثاني أنه وجد أنه انساق أمام افتعاله الغضب، وتسرب الأمر من هيمنته حين تطرق إلى مسألة البيت وهو ما كان يخشاه أكثر الخشية، رغم يقينه أن هذا البيت إنما هو حقه الذي لا مراء فيه، ألم يكن هو يعيش فيه مع الوالد حتى آخر يوم له؟ أما كان هو الذي تحمل الوالد الكريم حتى آخر لحظة؟ لكن الأمر لا يخلو من حرص واجب، فماذا لو أثير موضوع الحُجة مرة أخرى؟ أما الأخ الثالث فقد كان يريد أن يبرئ نفسه من الاتهام المباشر بالقسوة، أما البدين،

وهو الذي جاء ليتدخل بالخير بينهما، فقد خشى هو الآخر الأمر نفسه، أن يتطرق الأمر لمسائل الملكية، وهو الذي يسكن في بيت كان مُقامًا على أرض ملاصقة لبيت الوالد الذي أصبح الآن بيت الأخ الأكبر، وهذه الأرض كانت في الأصل أرضًا مملوكة للوالد تركها له ليبنى عليها، وهكذا وقبل أن يفكرا كثيرا أسرع يدوي على أذنيهما:

– هل فكرتما بأنه من الأفضل لكما، بل لنا جميعًا أن نفكر في حل ينهي مشكلة أخينا الأصغر بدلاً من الشجار على مدلول الكلمات؟

لقد ضرب على الوتر مباشرة، الأكبر ضاقت عيناه، واختلج جفناه، ولم يكن هذا ليخفى على الأخوين، نظر كل منهما للآخر نظرة فهم ومقدرة، لقد كان الساهي هو أقربهم إلى البدين، رغم ما في الأمر من أشياء وما في النفوس من خبايا.

وضع الساهي يده على لحيته ممسكًا بها، وكانت هذه عادة دأب عليها عندما يحتاج إلى استخدام عقله قليلا، قال بنبرات بطيئة وبصوت أكثر هدوءا:

– هذا ما جئت بشأنه، ولكنه بدلا من أن يستمع لقولي، أخذ يكيل ليي الاتهامات.

كاد وارث العباءة أن يندفع خلف الشيطان مرة أخرى، لكن البدين أسرع يقطع العِرْق:

– فماذا لديك من جديد يا أخي؟

– ما من جديد في الحقيقة، كل ما في الأمر أنني كنت أرغب في معرفة من الذي اعتاد أن يلازم الوالد الكريم في أيامه الأخيرة !

– لماذا؟

الأخ الثالث هذا كان يحاول أن يبدو متصفا بالكثير من الحلم في الحقيقة، وعندما كان يريد أن يكون حليما فعلا، كانت عيناه تشعان ما يشبه النار الموقدة، وكانت أذناه تتقدان بلون قان، وأما وجهه فحدث ولا حرج، الزبيبة التي حال لونها إلى الكلاحة كأنها مغطاة بطبقة من الجير ترتفع محدثة أشكالاً غريبة من التجاعيد المرسومة

حولها، ما علينا، المهم الآن أن هذا الأخ (الكريم) كان يريد أن يبدو حليما إلى أقصى حدود الحلم، فسأل بصوت مبحوح مرتعش:

– هل في ذلك من حرج؟

لقد كان الأخ البدين طيبًا جدًا، وكان أحيانا يخشى مثل هذه المظاهر من الأخ الثالث، فقال متراجعًا:

– كنت فقط أسأل، لو نعرف السبب تسهل الإجابة !

والغريب أحيانًا، ولا أدل على طيبة قلب كل من هؤلاء الأخوة أكثر من ذلك في الحقيقة، أن الألوان تتغير في الوجوه بسرعة سير عقرب الثواني في صحنه في مسار لا ينتهي، قال الأخ مجيبا أخاه:

– كنت أفكر فيمن قد يكون قد ذكر أمام الوالد في مرضه أن إخانا الأصغر قد شتل أرضه الواسعة أرزًا.

ما هذا السؤال؟ هز البدين رأسه بشدة كأنما يرج محتوياتها، ربما تلك العادة كان قد ورثها من أحد الأجداد، انتبه إلى الفكرة، ولاحظوا معي أن رجة الرأس هذه هي التي نبهته، لا اتفاق سابق بينه وبين الساهي، لا سمح الله، فانطلق:

– يا إلهي، ألم تكن زوجة ذلك الأخ الأصغر شاتل الأرز تكثر من التردد على والدنا في ذلك الوقت تتظاهر بأنها أكثر تفانيا من زوجات باقي الأبناء في خدمته؟

هذا هو ما أسّميه الذكاء، لم يكن الأخ الأكبر قد خطرت له هذه الفكرّة ببال، وكل ما كان يفعله هو نوع من الدفاع النابع من كونه كان أكثرهم معاشرة للوالد بحكم معيشته معه، خشية أن ينقلب الاتهام ضده أساسا، ورغم روعة هذا الحل، إلا أنه كان متوجسًا لا يزال.

قال وكأنه يمشي على قشر بيض:

– هذا صحيح.

قال الثالث الساهي الذي تحته دواهي وقد حال لون وجهه إلى سمرة وردية محببة:

- يا الله، أخيراً وصلنا، أرأيت ما كنت أبحث فيه؟

لم يمهلهما الأخ البدين الطيب، بل أسرع يطرق السخونة البادية:

- أرأيتما؟ كنت أحمل على امرأتي إهمالها لزيارة أبي فكانت تقول أن زوجة أصغرنا تقضي معه جل وقتها وتتعلل بالعيال قائلة هذه لا عيال لها ولهذا فعندها الوقت لترعاه.

لم يكن الأخ الأكبر وارث العباءة بهذه البراعة التي بدا عليها الأخوان الآخران، وكان لا يزال متردداً، فقال ببطء:

- لم أفكر أبدا في أنها قد تقصد شيئا كهذا.

قال الثالث فرحا حتى أن لون وجهه عاد يتغير مرة أخرى:

- أنت طيب يا أخي، ولا يمكنك أن تفكر في هذه الشرور.

قال الأكبر شارداً:

- بل أنتما فيما يبدو ابنَا أبالسة، ما ظننت أن الخيال يجنح بكما هكذا.

تبادل الأخوان نظرة ريبة، وقال الساهي في تردد:

- لك أن تتصور ما تشاء، ولكني أصر على سؤال الجميع في هذا الأمر.

عاد الأكبر يتمتم وكأنه يحدث نفسه:

- فلماذا يفعلان ذلك؟

هذا هو السؤال المطلوب إجابته، لماذا يفعلان ذلك؟ تساءل الأخ البدين:

- هل كان هناك ما يخشاه الصغير لو عاش الوالد؟

نظرا إلى الأكبر مستفهمين، وضع هذا رأسه على كفيه حزينًا، لقد كان يحب الأصغر في الحقيقة، لكنه فكر في الصالح العام كما يقولون، قال متألمًا:

- لا أعرف!! لقد كان يحبه بجنون.

عاد الأخوان يحاولان تحريك المسألة:

- ألم يحدث أي حديث بينهما لأمر يجذب انتباهك؟

عاد يهز رأسه:

- لا أظن!!

ثم فكر قليلاً، وعاد يقول:

- لكن قد يكون هناك أمر ما بخصوص الأرض !

- أى أمر؟ حاول أن تتذكر جيداً، فأنت الذي تعلم كل الأشياء.

- ربما أن أبي أعطاها له، فمن أين له بمثل هذه المساحة الواسعة؟

- ربما؟ أم أنك تعرف؟

- لا أعرف، أو ربما..

تطلع الأخوان، وعيناهما اشرأبتا.

- ماذا تعرف؟

- في الحقيقة.. لا أعرف.

- هل رأيته يعطيه ورقا ما مثلا؟

- هل رأيتهما يومًا يتحدثان جانبا؟

- هل سكتا ساعة دخولك؟

- هل اختلى به في فترة مرضه؟

- هل...

ما علينا من كل هذه الأسئلة، المهم أن النتيجة الوحيدة والأكيدة أن الأخوة الثلاثة هؤلاء قد استطاعوا أن يستنتجوا أن الأخ الأصغر شاتل الأرز هذا لا يستحق الأرض التي يملك.

وفى النهاية، كانوا يتفقون على الاجتماع السري الذي يلتقون فيه لتحديد الخطوة التالية، وكان هذا الاجتماع لبعض الأخوة هذه المرة، فبعض الأخُوة لم يكن له صالح بما يحدث، ولهذا كان أفضل مكان له هو في بيت البدين الصغير الجديد الذي اشتراه من اللئيم، في الحقيقة لم يكن هذا البيت صغيراً، لأن البدين استطاع في النهاية أن يدفع لمعظم الآخرين ليخرجوا من بيوتهم، وانفرد بموقع البيوت الفريد، ومنها، أطل على الهيش، وتمكن من اخفاء اللقاءات المرغوب في إخفائها، ليس تماماً في الحقيقة، فهو، رغم كل ما قدمه من إغراءات، لم يستطع إخراج الجميع، فقد كان هناك واحد منهم شديد العناد.

جاحظ العينين

كان جاحظ العينين بستانيًا.

لم يكن لديه أرض يملكها، ولذلك فقد عمل في كل أراضى البلدة، استأجر الأخوة أخاهم هذا ليزرع لهم بساتينهم، في كل بستان عملت يداه، زرع كل أنواع الفاكهة، ومن يديه جمعوا أحلى الثمار، ثمار البرتقال والكمثرى والزيتون، شجرات الزيتون التي زرعها كانت تكبر بسرعة، وتؤتي ثمارها في سنوات قليلة، وعندما كان يحب أن يريح بدنه عند الظهيرة القائظة، كان يجلس تحتها، لم يكن يحب أكثر من رؤية ثمرة ناضجة يحملها في الصباح إلى الوراقة وهى تجلس للقراءة أو الكتابة في بستان أبيها، كانت الوراقة برية الطبع، لا تصاحب الكثيرين من أعمامها أو أبناء أعمامها وبناتهم، لكنها كانت تألف عمها جاحظ العينين وتطمئن إليه، وكان جاحظ العينين يحب الوراقة، في الحقيقة كان يتمنى لو تزوجت أحد أبنائه.

يوم ولدت الوراقة، أخذها جاحظ العينين بين يديه، كانت صغيرة الحجم قليلة الشحم، وقد فتحت عينيها عن آخرهما، قال ضاحكًا:

– هذه البنت التي لم أنجب، لكنها أخذت ألبابي، وخفق لها قلبي.

وقال لأخيه أبى البنات:

– فلتهب ابنتك هذه بني!!

قال أبو البنات باسمًا:

– ولِمَ لا؟ أسعى إلى تزويجهن منذ الحين، فلأي من أبنائك تريدها؟

قال جاحظ العينين:

- فلتكن لأصغر أبنائي، لقد ولد يوم ماتت أمه، وحرم لبن ثديها، لهذا فسوف يكون بحاجة لامرأة تحمل الحنان كله، وهذه حين أضمها إلى صدري أشعر بها تحنو عليَّ وهي في يومها الأول، فلتكن له.

ولهذا كان يقول دائما للبنا:

- هذي عروسك يا بنا، يابني.

كان يراها في داره وهو يفكر أحيانًا، تجالسه وتصنع له الطعام وتقوم بشئون البيت، وكان يقول لنفسه: لئن لم تكن الوراقة ست بيت ماهرة، فلابد أنها ستملأ البيت بالحب، وسيكون أبناؤها خيرًا من كل الأبناء، فكر جاحظ العينين في أن البنا أفضل من يناسب الوراقة، لكنه كان يتراجع عن طلبها لابنه لخوفه من أن هذا الطلب سيضايق أباها، الذى لم يزوج من بناته سوى اثنتين، الطباخة، وغاسلة الهم، وكلتاهما أتى زوجها معها ليقيم في بيت جعله أبو البنات لهما، بجوار بيته، لقد ابتاع أبو البنات خمسة أفدنة على الترعة في شمال البلدة، وأحاطها بسور حجري يحجب الرؤية، وفي هذه المساحة حدد لكل من بناته نصف فدان تبني عليه بيتها، وتمارس فيه عملها، فالنسَّاجة والغازلة والخياطة يزرعن في نصيبهن نباتاتهن الصابغة، والمربية تربى دواجنها وطيورها فيما يخصها من أرض، أما اللبانة فقد بنت بمساعدة ابنه البنا زريبة لجاموساتها الثلاث وبقرتها الوحيدة، أما أبو البنات نفسه فقد بنى بيته في وسط هذه الأفدنة، وكلما زوج بنتا بنى لها بيتا صغيرًا داخل نصيبها من الأرض، وفى وقت لا حق، حفرت الوراقة بركة كانت تحاول فيها تربية البردي، بدت النباتات في البداية صغيرة ونحيفة العود لا تقارن بما ينمو على حافة الترعة، وبعد محاولات أخرى استطاعت أن تزرع نباتات أفضل وأقوى، فكر جاحظ العينين أن عليه أن ينتظر حتى تتزوج باقي البنات، أما بستان الزيتون والذي كان يقع في وسط الحقول، فقد استعان أبو البنات يوما بأخيه البستاني لزراعته، وكان يرغب في أن يوفر لبناته بعض ما

يحتجن إليه من الزيت والزيتون نفسه، بالإضافة إلى أن مكسبه من بيع كل من الزيتون وزيته في السوق كان من أهم مصادره.

ولأن جاحظ العينين أحب الأرض فقد زرعها بصدق وعناية، في الحقيقة أنه لم يهتم يومًا بمسألة لمن يزرع، لقد أحب الأرض كلها، فزرع كل ما قدر على زراعته منها، ولم يسأل أحدًا أجرًا على ذلك، وإنما كان يكتفى بقطعة أرض صغيرة يزرعها لنفسه وتكفيه طعامه وطعام أولاده، وعندما عتب عليه بعض أولاده في ذلك قال لهم:

- ألا يكفيكم ما نأكل؟ هل أحسستم يومًا بالحاجة إلى المزيد؟

قال أحدهم:

- بلى يا أبي، ولكن جهدك هذا، ألا تستحق عليه أجرًا؟

قال جاحظ العينين:

- إني أفضل ألا آخذ أجرًا على أن يأتي يوما من يقول أنه يطعمكم.

قالوا: فلماذا تتعب نفسك في زراعة بساتينهم؟

قال:

- إنما أفعل ما أحب، فإذا كنت أحب البساتين فيجب علي أن أعتني بها، وإذا كنت أرغب في أن أرى قريتي تمتلئ بأشجار الخشب وأشجار الثمر، فعلي أن أزرعها.

قالوا:

- لكن بعض من تزرع لهم لا يستحقون ما تزرعه؟

قال: من قال لكم هذا؟ ليس هناك من لا يستحق أن أزرع أشجاره، البستان الذى أزرعه يطعم منه الرجال والنساء، الكبار والصغار، ولا بد أنه يوجد في وسط كل هؤلاء واحد على الأقل يستحق، اسمعوا، سأطعمكم الثمر الذي أحببته، ومنه عرفت أن

الشجرة التي أزرعها أغلى ثمنًا من أي مال آخذه، وأحب إليَّ أن أرقبها تنمو وتكبر من أن أتقاضى عنها أجرًا.

أخذ جاحظ العينين أولاده الثلاثة الرجال يوما إلى مزرعة من مزارع الزيتون التي قام بزراعتها والعناية بها على مدى سنوات طويلة، ولم تكن حينها سوى أرضًا بورًا يبابا، وأراهم كيف أصبحت جنة خضراء، ذلك اللون الأخضر الكابي الغريب.

قال وهو ينظر إليها:

- أظن الجنة لن تكون إلا شجر زيتون كهذا.

جاحظ العينين كان بستانيًا.

هل جحظت عيناه لكثرة تمعنه في الوريقات الصغيرة لأشجار الزيتون؟ أو تلك التجاعيد التي لا تنتهي لأوراق الجوافة؟ أم لطول تأمله في الثمار منذ تتكون بادرات الزهور، وطوال نموها وتفتحها ودعوتها المعلنة للنحلات والفراشات لتحط عليها وتحمل إليها على شعيرات أرجلها ذرات الحياة، ثم سقوط وريقاتها عن الرحم الذي يحمل الثمرة الجنين لينمو، أم لطول تمعنه في تحول ألوان الثمرة الصغيرة من الأخضر القاتم حتى ما تصل إليه من ألوان عند النضج، وحتى تكتمل وتقطف؟

وهل جحظت عيناه سعيًا وراء الأفق لترقب طلوع الشمس وغروبها، وربما بسبب إرساله النظر للأفق البعيد محاولاً اختراق المجهول الآتي، وقد يكون ذلك قد حدث وهو يرقب الحشرات الصغيرة التي تعيش بين أشجاره، بعضها يجب إبعاده وبعضها الآخر يجب بقاؤه، كانت الزهور تتفتح، وبكل الطرق - لكل زهرة طريقتها - تدعو الحشرات الطائرة من نحلات وفراشات لنقل ذرات الحياة بين أعضائها، لم تكن الزهرات تخجل من دعوتها السافرة هذه، ولا كانت الفراشات تخجل من الإجابة المباشرة، كل منها تستمتع بلمسات الأخرى وتفيد بها، كان يرى الابتسامة المتبادلة بينها جميعها، وكان يعرف فرحة الزهرة بالحمل حين تتعرى، تنضو عنها الوريقات التي انتهت مهمتها بالإغواء لتتفرغ لجنينها.

ربما لهذا السبب أو لذاك، لكن من المؤكد أن جحوظ عينيه كان يمكنه من رؤية أوسع وأشمل لكل ما حوله.

قال جاحظ العينين لأبنائه:

- لا أحب أن أرى مثل زهرة تتفتح..

قاطعه أحد الأبناء:

- لكن الزهور تموت!

قال جاحظ العينين:

- الزهور لا تموت، إنما تنضو ثيابها الزاهية لتضع كل عصارتها في جنينها، حتى ينمو ويكبر ويصبح ثمرة، وهى تنضو ثيابها لكيلا تنتبه الحشرات إلى جنينها فتحط عليه وتتلفه، كانت الزهرة تلبس تلك الثياب الفاتنة لإغواء الفراشات والنحلات، فلما انتهت مهمتها عليها التخلص منها لتتفرغ لجنينها.

مد يده وتناول بضع ثمرات خضراء من إحدى أشجار الزيتون، وناولها أولاده، قال أكبرهم:

- لكن هذه شديدة المرارة.

أعاد جاحظ العينين:

- قلت لك إنها أشجارى، كيف تقول أنها شديدة المرارة؟

قال: ذق هذه الثمرة، ذوقوا جميعا.

خجل الأبناء أن يرفضوا طلب أبيهم، وضع كل منهم زيتونة في فمه، ولم يجرؤ معظمهم على أن يلوكها، إلا واحداً منهم، وهو الذي خجل ألا يذوق مرارة الثمرة، ولكنه ما أن قضمها حتى قال:

- لاتزال شديدة المرارة.

قال جاحظ العينين:

– عندما أذوق هذه المرارة أعرف أن يدي قد فعلت، وأن فعل يدي قد أثمر، وعندما أعرف هذا أحس بأني أستطيع أن أخلق، وأن الله قد وضع بيدى سحراً لا ينفذ، وعندما أعرف هذا؛ أعرف أن سحر الكلمات التي أهمس بها لشجراتي أقوى وأنفذ فعلا من كثير من مؤامرات الزمن ضدى.

كان الأبناء الثلاثة ينظرون إليه، وحينئذ؛ وفقط حينئذ؛ عرفوا أي رجل هو أبوهم، وعرفوا أيضا قيمة الكلمات.

قال جاحظ العينين: قلت لكم أنني أحب الخضرة، لكن ذلك لن يشفع لى، يوما ما سأقتل وسيعلق جسدي على شجرة السرو الكبيرة الكائنة في مدخل البلدة، فإذا حدث ذلك، فعليكم أن تنزلوه، وتواروني التراب، وليكن مدفني تحت نفس الشجرة، فهكذا سوف أرويها وتتغذى من خلاياي.

قال النجار وكان هو الابن الأكبر لجاحظ العينين:

– لن يكون هذا يا والدي، ولن نسمح به، ولئن حدث لننتقم لك أشد الانتقام.

لم يكن جاحظ العينين يحب الانتقام، لذلك قال:

– لا تفعلوا، بل اعلموا أن الموت هو من تربص بي، وهذا لن يتمكن أحد منه، ولذلك فإن الشيء الوحيد الذى عليكم فعله هو الحب، لا تسمحوا للكراهية أن تدخل قلوبكم كما فعلت بأخوتي، ارفقوا بأصغركم، ولا تدعوا الخلاف على المعانى يفسد بينكم، واعلموا أن الاختلاف هو الطبيعة التي يجب أن نتقبلها بلا كراهية، كما تقبلتم مرارة الزيتون يوماً لأجل والدكم العجوز، فتقبلوا مرارة الاختلاف لأجل المزيد من المعرفة.

أما اليوم فعلينا أن نرحل إلى الهيش، نحمل صرة الطعام ونعزق الأرض من أجل المزيد من النمو.

وقال البنا حينئذ: من أجل المزيد من البناء أيضاً.

لكنهم لم يرحلوا إلى الهيش إلا والوراقة معهم، حينئذ كانت الوراقة قد بدأت تحترق، لكن هذا أمر آخر.

أمسيات العجوزين

حينئذ قاطع المسلي الحكاء قائلاً: اليوم يمضى، والحكاية تبدو جهمة، دعني أحكي لكم قليلاً.

سكت الحكاء، وتململ الريِّس قائلاً:

ما رأيكم لو نعمل ثم نعود إلى الحكاية في المساء؟

قال ابن الريس الذي كان يفتح عينيه دهشة: بل دعه يقول الحكاية، أريد أن أعرف ما جرى للوراقة.

ابتسم المسلى وهو يقول:

ماذا يخفي كل عجوز في جعبته من سحر بجعلنا نصغي؟ هل هو تلك الوصفة الساحرة المسماة بالخبرة؟ هل وصل هؤلاء العواجيز الساحرين إلى مستوى المعرفة الكاملة؟ لا يمكن أن يكون هذا هو الأمر، فلا يصل أحد أبدا إلى هذا الحد المخيف، لكنه مايحملون من تاريخ وأقاصيص قديمة، التاريخ، هذا هو السحر الخاص والخالص، أنت تحس كأنك لا تحمل شيئا من الذكريات أمام ما يحمله ذلك العم، فبإمكانه أنت يحدثك عن تاريخه وتاريخ أباه وجده، حكاية من عاش كل هذه الأحداث بكل ما فيها من أسرار موحية، ومفاتيح لخيالات مستحيلة.

كان عجوزان من آباء أو قل أعمام هؤلاء الإخوة، يقضيان الوقت في المسامرة، وبعد صلاة العشاء في زاوية المسجد الذي يتألف من ساتر من البوص المغزول بخيوط من الكتان، وفرش مكون من بضع قطع من فرو الأغنام والأبقار، يجلسان وتمتد بينهما

المساجلات، في مباراة بديعة ذات جاذبية خاصة، تجعل بعض الرجال والفتيان يلزمون مجلسهم لا يبارحونه، رغبةً في سماع ما يصل إليه حديثهم في هذه الليلة أو تلك، وقد يبقى الصغار في المجلس فتتحول الحكايا إلى نوع خاص من الرواية كأن يقول صبي لأحد العجوزين:

– احك لي ياجدي حكاية الجسر.

ويقول العجوز:

– أشعلوا لنا النار أولا.

ويسرع بعض الفتيان لإحضار بعض القوالح الجافة، يتعاون البعض لإشعالها بينما يعد البعض الجوزة، ويخرج أحد الرجال قطعة من الحشيش من جيبه قائلاً:

– والله حظكم في أرجلكم، لقد حصلت على هذه القطعة اليوم بالمصادفة، قلت أنها ستصلح لمثل هذه المناسبة.

في الحقيقة هذه المناسبة هى مناسبة يومية تقريبًا، لكن الاحتفاء بها يجعلهم يعاملونها كالمناسبات السنوية تمامًا.

لم يكن جاحظ العينين يحس بمتعة في الحياة كما في مثل هذه الأمسيات، بين العواجيز، فكان ينطلق في المساء إلى الزاوية ليجالسهم ويستمتع بثرثرتهم.

وعندما تشتعل القوالح بالوهج الأحمر، وتبدأ الجوزة بالدوران بين الرجال، ويأخذ العجوز النفس الأول ويكتمه ثم يطلقه مطلقا خلفه سلسلة من السعال الجاف، يحكي العجوز حكاية الجسر:

– كنت في الزمن الأول صيادًا، ولم يكن يشق لي غبار، في الصيد لا صياد يباريني، أقف عند الجسر على رأس الترعة أرقب المياه، وأصطاد بيدي العاريتين، وبالسنارة والشبكة، وعندما أضع الجوبية في الماء فلابد أن آتى في الصباح لأجدها

مليئة بالطيبات، آخذها إلى أمي فتشويها أو تقليها ونأكل نحن وبيوت الجيران يومها، كل بيوت الناحية تأكل معنا.

كان يحلو للعجوز الآخر أن يعارضه دائمًا، وكان هذا أحلى ما في الأمر، فإذا سكت ولم يعارض، كان جاحظ العينين يلقي بكلمة تثير المناقشة:

- هل عاصرت ذلك يا با عليٍّ؟

ولم يكن أبا عليٍّ يجد فرصة أفضل من هذه:

- عندما كان أبوك محمد يطعم أهل الناحية سمكا؟

يبتسم جاحظ العينين بخبث:

- وهل كان يفعل؟

- كيف تجرؤ على تكذيب هذه الشيبة؟ لولا أنها عيرة، ككل حكاياته!!

كان أبا محمد يختنق بالانفعال:

- أنت تعلم جيداً أنني كنت أفعل هذا، وكانت أمك تقول لك ألا ترى ما يفعل أخوك محمد، لماذا لا تفعل مثله؟

ويضحك أبا على:

- نعم، كانت تريدني أن أطعم أهل الناحية أيضًا، ولكن ماذا يفعل الآخرون عندما أقوم أنا وأنت بإطعام الجميع؟

يقول أبا محمد:

- طيب، ألا تذكر يوم اصطدت القرموط؟

ويقبل الجميع صائحين:

- احك لنا يوم اصطدت القرموط يابا محمد.

يتطلع أبا محمد بانتصار أمام رغبات المستمعين، وتدور عيناه في حيوية بين الجميع، وهو يردد حكاية صيد القرموط:

– كنت واقفًا عند الجسر، وكانت معي سنارة كبيرة، عندما شاهدت ذلك القرموط، كان طوله يصل إلى مكان بعيد، لقد مر أمامي وظل يمر وأنا مذهول فلم أر ذيله منذ رأيت رأسه إلا عند الظهر.

– يا مهول.

– أكان بهذا الطول؟

– هل رأى أحدكم مثل هذا؟

يرد أبا علىّ مؤكدًا:

– ولن يروا مثله أبدا.

– وبعدين يابا محمد؟؟

يكمل أبا محمد:

– عقدت العزم على صيد هذا القرموط، وكنت أنتظر كل يوم من الصباح إلى المساء عند الجسر حتى أراه مرة أخرى، بعد عام أو نحو ذلك رأيته آتيا من بعيد، فرميت السنارة، وانتظرت هادئا، عندما اقترب أعجبه الطُعم فأقبل عليه، كنت قد وضعت له طُعمًا من الدود الكبير الذي ظللت أربيه منذ عقدت العزم على صيده حتى أصبح في مثل حجم الثعبان الدفان الكبير، المهم غمزت السنارة فرفعتها، لكن القرموط كان قويًا وثقيلاً فشدني، ظللت أشده ويشدني، من طلوع الشمس حتى الظهيرة، أنظر لعل أحدًا يظهر فيساعدني، عند الظهر رأيت الولد عبود الأسود الذي مثل البغل آتيا فناديته، جاء يشد معي حتى استطعنا إخراجه، هل تعرفون كم بلغ طول هذا القرموط؟

ينظر الجميع باهتمام، ويقول أبًا علىّ:

- بالمتر أم بالذراع؟

يقول أبا محمد منفعلاً

- كان طوله ونحن نجره بحيث أنه عندما وصلنا إلى بيتنا، كان ذيل القرموط لا يزال عند الترعة.

يقول أبا علىٌ:

- وماذا في ذلك، لقد شاهدت في حياتى ما هو أعجب من هذا، لقد كنت في مصر ومررت بالنحاسين فرأيتهم يصنعون آنية طعام نحاسيةٌ ضخمة، حتى أننى مررت بعدها بأربع سنوات، فوجدتهم لا يزالون يعملون في الآنية نفسها.

يقول أبا محمد متعجبًا:

- ما هذا؟ هل تسخر منا؟ أربع سنوات يعملون في حلة واحدة؟

يرد عليه ساخرًا:

- وفي أى شيء يمكن طبخ قرموطك هذا إذن؟

يقول أبا محمد:

- أنا لا أكذب، ولعلمك أنت المشهور بالكذب بين الجميع، ويعرفون سيرتك كاملة، وسيرة عائلتكم كلها.

يقول أبا على:

- وما لها سيرة عائلتنا يا سى محمد؟ نحمد الله على الذكريات العطرة التي تسير بين الناس عنا.

يقول أبا محمد وهو ينظر من طرف عينه:

- عطرة جداً، كسيرة جدتك مقطفة مع زوجها الميمون.

يلتفت جاحظ العينين وهو لا يكاد يتوقف عن الضحك:

– من تلك التي أكلت ذراع زوجها يابا علىّ؟

لم يكن أبا علىّ يحكي كثيراً عن جدته هذه، كان في أغلب الأحوال يقابل هذا السؤال من جاحظ العينين بنظرة غامضة وابتسامة أكثر غموضاً ولا يجيب، حدث ذلك في مرات قليلة جداً، مثلما كان في تلك الليلة، وكان يحس يومها بشجن، كانت نظرته تحمل ذلك الشجن والحزن، كما يحدث مع مثل هؤلاء العجائز حين يتحدثون عن الذكريات الغالية. يومها كان يتحدث بصوت عميق كأنه آتٍ من الزمن البعيد.

يومها ضحك أبا علىّ وقال بصوت يحمل رنة عتاب:

– تلك كانت جدتي، كان ذلك في زمن حفر البحر الكبير الذي يمر بالبلدة الكبيرة المجاورة، وكان الهجانة ينزلون إلى البلدة للبحث عن الفلاحين الهاربين الذين يعملون في المشروع، وكانوا إذا دخلوا إلى البلدة أسرع كل إلى داره، وفى ذلك اليوم دخلت جدتي مقطفة إلى السوق، وكانت تبيع ثمار المشمش التي تأتى بها من شجرتها التي زرعتها بيديها في حقل أبيها، كانت جدتي هذه من المهابة حتى أن الرجال كانوا يقفون لها، وكانت ضخمة الجثة، لها ردفان لم أر مثلهما في الناحية، كنت في طفولتي أنظر إلى ردفيها متعجبا، وكنا نحن الصغار نسخر منه فيما بيننا، وكانت إذا خبطت رجلا بقبضة يدها الممتلئة يقع. ما علينا، جاء الهجانة إلى السوق وهى جالسة، وكانت لضخامتها لا تستطيع الجري كما يفعل معظم من في السوق عندما يأتى الهجانة. وقف الجندى على رأسها وقال لها:

– هاتي هذا المشمش يامرأة.

لم يكن أحد يجرؤ أن يناديها بامرأة سوى زوجها، وكان أخوها – عم والدى – يقف غير بعيد، صرخت في الجندى:

– المرأة هو أنت ياغبي.

قبل أن تنتبه كان قد رفع السوط ونزل به على ظهرها، لم يحدث أبدا في حياتها أن ضربها رجل سوى أبيها، عندما كانت طفلة صغيرة، حتى زوجها لم يستطع يوما أن يضربها، فلما حدث ذلك غلى الدم في عروقها، وبهتَ الجميع ووقفوا ينظرون، حتى أن أخاها وقف مبهوتا لا يعرف كيف يفعل، لكن حيرة الجميع لم تدم سوى لحظات فقد اندفعت إلى جندى الهجانة وأمسكت ساقه بكلتى يديها وشدته وهو جالس فوق الجمل فأوقعته أرضا، أذهلت المفاجأة والسرعة التي تصرفت بهما صرخ الجندى متألمًا ولابد أنه أصيب بكسر في أي مكان من جسده، لكنها لم تنتظر وانتزعت السوط من يده وأهوت به عليه، عاد يصرخ يستعين بزملائه، ووجد أخوها نفسه في موقف سئ فأسرع إليها يعاونها، وحدث هرج ومرج كبيرين، وانتشر الناس في السوق وتكالبوا على الهجانة عندما رأوا المرأة وقد أهينت فلم تتهاون في رد العدوان عن نفسها، كان يومًا مشهودًا، استرد فيه أهل القرية بعض كرامتهم الضائعة، وقتل الكثير منهم، لكن قتل الكثير من الهجانة أيضًا، ولولا ستر الله لقتلا كلاهما في ذلك اليوم.

قال أبا محمد:

– لكن هناك المزيد عن زوجة جدك هذه، ألم تحبس زوجها في الصندوق؟

ضحك جاحظ العينين حتى كاد يستلقي:

– كيف؟ بالله عليك أن تحكي لنا هذه يابا علىً!!

قال أبا علىً:

– جاي لكم في الكلام، بعد هذه الحادثة نزل الجيش البلدة يبحثون عن المرأة التي فعلت ذلك ولم يدلهم أحد عليها، راحوا يأخذون الناس واحدًا بعد الآخر، وكان زوج مقطفة من خارج العائلة، زوجها أبوها منه غضبًا عليها عندما عصت أمره ذات يوم، وكانت تكرهه، وإذا عصى لها أمرًا توسعه ضربًا، ولم يستطع أبدًا أن ينجب منها، فلما وجد الجنود يبحثون عنها دلهم على مكانها، تركهم خارج الدار، فحتى دناءة عنصره ورغبته في الانتقام مما تفعله به لم تكن لتدفعه إلى إدخال غرباء على زوجته دون أن

يطمئن إلى حالها، فدخل يدعوها للخروج إليهم، كانت نبرته ساخرة وفهمت مقطفة ما حدث، فأمسكت به وأدخلته في صندوق ثيابها الكبير وأغلقته عليه بالقفل وغادرت الدار من باب الزريبة الخلفي، واتجهت إلى دار أبيها. بعد ذلك طلقها أبوها منه، وتزوجها جدي وكان ابن عمها. وأنجب منها أطفالا كثيرين منهم أبي.

عندما كان يتوهج أبا علىّ كان يسحب الربابة من مخلاته، ويبدأ في العزف عليها، وكان يروي قصة الزناتي خليفة، وقصة عزيزة ويونس، وأحيانًا كان يعزف فقط، فتطوف أصابعه بأوتار الربابة، ويصبح الجميع متشوقًا للرقص على أنغام ربابة أبا علىّ.

وكانت هذه اللحظة التي يقوم فيها جاحظ العينين إلى الرقص، يقف في وسط المجموعة، يضرب كعبيه ببعضهما، ثم ينطلق، كان يحاكي حركات الخيل، وتحليقات الصقور، ولم يكن يستطيع أن يجاريه في الرقص سوى البنا، ابنه على أى حال.

كان البنا كأبيه، نحيفًا كأبيه، طويل القامة، خفيف الشعر في مقدمة رأسه، أيضًا.

بنى البنا بيتًا بجوار بيت الطيب، ولما كان لا يحب جوار البدين، ولما كان متعلقًا بالوراقة وبينما كان حال أبيها كما نعلم، فلم يعد يظن له زواج قريب، ولما كان اللئيم قد بادل البدين بيته الصغير بالآخر الكبير المقام هناك في جوار الحقول، فلما جاء البدين يعرض على البنا تعويضًا لترك البيت، فقد قبل تعويضه، وترك له الدار، عائدًا ليقيم في دار والده، وكان الوحيد الذي لم يقبل ذلك هو الفارع الطالع، وقد قال له البنا:

- لِمَ لا ولم يعد الجوار كما كنا نبغي؟

قال الطالع:

- أنت لا تنظر بعيداً بما يكفي يا بنا، البدين يريد ديارنا لأمر لا أفهمه، ويجب أن أفهمه.

ساد الصمت جلوسهما في الحقل الواسع حيث زرع جاحظ العينين زيتوناته، وحيث يجلس البنا كل يوم بعد العصر يصنع الشاي وينتظر مقدم والده، هبت ريح متكاسلة، ووقعت زيتونة سوداء على الأرض بالقرب منهما، قال الطالع:

- البناء شيء جميل، والباني قادر على الفعل، فلماذا لا تكن فاعلاً؟ لماذا، عندما ترى الغيمة، لا تشعل شمعة؟ لماذا لا تشعل نارًا؟

عندما تجلس لتستمع إلى الراوي في الأمسيات، وعندما ترقص كالريح، كالخيل، كذبذبات الشعلة، كألسنة النار، عند ذلك أشعر أن النار ستشتعل في الهيش كله، فلماذا لا تفعل؟

قال البنا:

- بل أفعل، إننى أقوم بالبناء..

وبعد صمت قليل عاد يقول:

- لو كان الأمر بحاجة للنار لأشعلت النار...

وقال أيضًا:

- بل.. ولماذا أشعل نارًا في الهيش؟

ألا ندع الهيش راقدًا حيث هو؟ بما تحته من مستنقع؟؟

المحاولة الأولى للقتل

عندما تستعد الشمس لرحلة جديدة في الصباح، ويملأ نورها الأرض، وتبدأ قطرات الندى في السقوط من فوق الوريقات، يخرج الأخوة كلٍ إلى غيطه، يحمل فأسه أو يسحب بقرته، أو يركب دابته، كذلك الأخ الأصغر شاتل الأرز كان يفعل كسلِو أهل القرية، في الصباح يصحو لدى الفجر ليجد امرأته قد أعدت الخبز الطازج، رائحته تملأ البيت، رائحة الجلة المحترقة في الفرن أيضًا لا تزال تملأ الجو، أصوات الطيور الصائحة تنادي المرأة لتطعمها ككل من في البيت.

وعندما خرج في ذلك الصباح، كان ككل يوم قاصداً حقله، لم يكن يعلم بما يخبئه له الأخوة المتربصون به خلف شجرة السدر الكبيرة الواقفة على رأس الحقل، ساق غنماته القليلات وركب حمارته الفتية وتبعه أو تقدمه كلبه الأمين، كان الكلب في الحقيقة لا يهدأ ولا يركن، كثير الحركة في الطريق، يجري أماما ثم يعود خلفا، يجري ليسبق الأغنام ثم يلف حولها وكأنه يريها الطريق، وعندما اقتربوا من الحقل سبقت إحدى الغنمات تتعجل الوصول إلى العشب، جرى الكلب نحوها ليهدئ من روعها، عندما وصلت العنزة إلى شجرة التوت الكبيرة القائمة على رأس حقل شاتل الأرز، توقفت فجأة وقالت في صوت غريب:

– اهرب، فأخوتك متربصون بك يريدون قتلك.

لم ينتبه الأخ الأصغر في البداية، لكن الكلب توقف ليقول نفس الشيء:

– اهرب، فأخوتك متربصون بك ليقتلوك.

كلما تقدم أحد الأغنام قال له نفس الكلمات. قال هذا غريب، قبل أن تتفوه العنزة الأخيرة بنفس الرسالة كان الأخ الأصغر قد لكز حمارته العرجاء جاذبًا مقودها يسارًا بشدة، متجهًا بها إلى طريق العودة

انطلق الأخوة خلف أخيهم، ما كان أسوأ هذا، فهؤلاء الأخوة كانوا يريدون دائمًا أن يكونوا مثلاً في التعاون والتضامن كما نعرف منذ البداية، انطلقوا خلف أصغرهم يرفعون أيديهم بما تحمل من أسلحة من فأس إلى شرشرة أو محشة أو خنجر، ما هكذا تمنوا أبدا أن يكون مشهدهم أمام كل من رآهم، نظر البدين أماما وهو يعدو لاهثا، حاملاً فأسه، فوجد المسافة تبعد، والحمارة الفتية تعدو بنشاط، فجأة توقف، قائلا:

- قفوا يا إخوتى الأعزاء، ماذا نفعل؟ لقد تمكن الشيطان منا جميعًا، كيف وصلنا إلى هذه الحال؟ ماذا يقول والدنا الآن وهو في تربته؟ أيحس بأية راحة أو سعادة في قبره وهو يرانا هكذا نتقاتل ويحارب الكبير منا الصغير، ما كان هذا ما أوصانا به أبدا.

نظر الأخوة كلٌ إلى أخيه، وتعجب اللئيم فانسحب من لسانه قائلاً:

- ما أعجب هذا ! ألم تكن هذه دعوتك أنت بالذات؟ أما كانت كلماتك أن هذا الأخ لا حل إلا الخلاص من وجوده، وأنه إن لم يحدث ذلك فلن تقوم لنا قائمة، ولن نتمكن من رفع رءوسنا بعد ذلك في الناحية؟

خبط الأخ البدين على كرشه صائحًا:

- أنا؟ أنا قلت كل هذا؟ يا أخي لا تفترى على الكذب، كل منكم يعلم أكثر من غيره كم أحب الخير لأخوتي جميعًا، وكم أريد مصلحة هذه العائلة، لكن فيما يبدو أنكم تنسون، وعندما تتذكرون تقلبون الأمور رأسًا على عقب، لا لن يرضى الوالد بهذا الظلم أبدًا، أبدًا.

بهذه الكلمات التي كانت تنثال من فمه مختلطة بتهدج غريب. وممتزجة بدمعة ممتنعة في عينيه، ومتلازمة مع أنفاس متلاحقة تزداد تلاحقًا مع كل حرف، حتى أنها تقطعت في نهاية الكلمات وإذا بهذا الأخ الضخم يضع يده على صدره في ألم شديد، ووقعت إلى جانبه يده الأخرى تحت ثقل الفأس الذي تحمله، وتتابعت آهاته، اندفع الأخوة إلى أخاهم العزيز، وهم في أشد القلق.

– ماذا به؟

– ماذا تحس يا أخانا؟

قال الأكبر في أسف شديد:

– هكذا أنتم، تقتلون القتيل وتمشون في جنازته، أنتم السبب في هذا، والآن ماذا نفعل وكيف نوصله إلى بيته؟ احملوه.

تمتم أحدهم قائلاً:

– أليس هذا صعبا؟ هل لديك فكرة عن وزنه كم يبلغ؟

وأكمل آخر:

– لئن حاولنا حمله لا نضمن أن يقع منا في الطريق فيحدث ما لا تحمد عقباه.

فتح الأخ البدين نصف عينه بصعوبة وقال بين الأنفاس المتلاحقة:

– لا ياأخوتي الأعزاء، لن أكلفكم ما لا تطيقون، يكفي أن تسندوني وسوف أسير على قدمي حتى النهاية.

تقدم الفقير والساهي يسندانه، اتكأ على ذراعيهما وسار ببطء وهو ينهج، كان الطريق طويلاً وشاقًا، وكلما ساروا بضع خطوات طلب إليهم في أدب أن يتركوه ليجلس قليلاً ويلتقط أنفاسه.

بينما الأخوة يسندون هذا الأخ المسكين المصاب يساعدونه في الوصول إلى بيته، فكر اللئيم في نفسه "ذاك هذا الدور لا يخيل على أحد يا أخي العزيز، ولكن ماذا تقصد ياترى؟ هل رجعت عما انتويت؟ غريب!! هل ترمي لإلصاق التهمة بغيرك؟ من ياترى؟ كلهم الآن يتربصون بك أنت وفي انتظار الخطوة التالية لك، وأنا أولهم، ولا تظن أنك قادر على خداعي، فأنا أدهى من عشرة مثلك."

وفكر الأخ الساهي: "يالك من غبي، أضعت فرصتنا الذهبية، ولأي شيء تهدف؟ تصرفاتك غامضة وغير مفهومة."

وفكر الأخ الأكبر وارث العباءة في نفسه: "يبدو أن البدين هذا طيب القلب في النهاية، لقد تظاهر هكذا ليوقفهم عن السعي وراءه، والله لولا أني أعرفه لصدقت حكاية طيبة قلبه هذه."

وفكر الفقير في حسرة: "انتهى المولد ولا حمص هناك، وأعود اليوم إلى أولادي مرة أخرى خاوي الوفاض، كيف لي أن أطلب من أخوتي شيئا بعد أن خاب مسعاهم؟"

بينما كان الأخ البدين يتسند حينا ويستريح آخر وينظر إلى كل منهم بنظرة كليلة متفحصة: "آه ياأولاد الزانيات، كلكم آثم، كلكم تتمنون أن تنشق الأرض وتبتلعني، ولكن صبرًا جميلاً، فهذه نهاية أطماعكم الدنيئة، هذا الأخ الأصغر لن يكون طعامًا سائغا لكم، وإنما سأتمتع به وحدي في الوقت الذي أريد."

وبعد أن رآهم أهل القرية يطاردون أخاهم الأصغر، رأوهم يسندون البدين هذا، مصمص الناس شفاهم متعجبين وضربوا أكفهم ببعضها وسبحوا الله العظيم.

عندما وصل الأخوة إلى دار البدين المجاورة لدار وارث العباءة، كان عدد منهم قد تساقط في الطريق، ولم يبق إلا أبناؤه وخمسة منهم وارث العباءة والساهي (الذي تحته دواهي) والفقير واللئيم، وبالطبع البدين نفسه، أدخلوه، فتهالك على المصطبة الخارجية

ودعا بغطاء. أقبل ابنه الأكبر بالغطاء بعد أن أتى به من الداخل وغطى والده الذي تمدد على المصطبة مرتعشا، قال الساهي للبدين الصغير

– مر له بكوب من الينسون ليهدأ قليلاً.

ذهب البدين الأصغر وقال والده بصوت خافت:

– لا تذهبوا، علينا أن نتحدث لأن ما حدث كان فشلاً ذريعًا.

قال وارث العباءة:

– إنما قد أخطأنا، وعلينا أن نقر بذلك.

قال البدين:

– أخطأنا، نعم.

قال الساهي الذي تحته دواهي بغيظ:

– أخطأنا؟ ومن السبب في هذا الخطأ؟ أما كانت فكرتك أن نضربه ضربة رجل واحد فلا يعرف قاتله؟

ارتفعت تنهيدة البدين وهو يحاول رفع صوته فلا يقدر:

– ماذا؟ أنا؟ أنت الذي قلت هذا فلا تفتري عليّ، أنا ما دعوت إلى مثل هذا الفعل الدنيء، ولتعلم، ألست أنت الذي قلت أنه السبب في موت أبينا؟ ألم يكن قولك أنت أنه هو الذي أوعز لامرأته بأن تخبر أبانا بشتلة الأرز؟ وأن هذا كان السبب المباشر في موت الوالد؟ ألم تقل ذلك؟ أما جئت – باحثًا عن شيء يدينه – تسأل وارث العباءة عمن كان يلازمه أكثر الوقت في أيامه الأخيرة؟

قال وارث العباءة يحاول تهدئته:

– لا داعي لكل ذلك الآن، اهدأ يا أخي.

انتفض الذي تحته دواهي:

- ولماذا يسكت؟ ألا تتفقان الآن وهو يدافع عنك؟ أليس الحق أنك أنت الذي أوعزت إلينا بهذا الأمر والآن تلقيان به على رأسي؟

صاح البدين وهو يلقي بالغطاء جالساً:

- أرأيت؟ أما قلت لك أن هذه عادته؟

قال الأكبر محاولاً كبح صوته:

- هلا تركنا النقاش في هذا الأمر الآن؟

ثم بلهجة تآمرية:

- أنت متعب، هل نسيت؟

لملم البدين الغطاء حوله:

- لقد استرحت بما يكفي، ولابد أن نصل بهذا الأمر إلى حده الفاصل.

قال الذي تحته دواهي:

- حسناً، فلتعلم أنني ماقصدت قتله، وإنما كان كل ما أرغب فيه هو استعادة حقنا في أرض أبينا التي استولى عليها.

وقال الأكبر:

- ثم أنه إذا كانت امرأته هى التي تلازم أبانا، فمن قال أنه أوعز لها بشيء؟

هنا، تحدث اللئيم، والذي لم يكن لئيما أبدا في هذه اللحظة:

- يا إلهي، كم أنتم أشرار، هل تريدون أن تهيلوا التراب على المرأة المسكينة التي لا حول لها ولا قوة؟

أصابت الدهشة الأخوة المتآمرين، وكأنما نسوا أن معهم آخرين، لكن البدين كان كعادته أسرعهم في التقاط الأنفاس، التفت البدين إلى اللئيم:

- ماذا تظن بنا؟ لم يقل أحدنا شيئا من ذلك. إنما يبدو أنك لا تفهم الأمور على وجهها الصحيح

قال الساهي:

- أما قلت لك ألا تتحدث الآن وأنت متعب هكذا، دع ذلك وادخل لترقد في فراشك، ها قد آتاك ابنك بالينسون.

أعطى الفتى القدح لأبيه، وقال وارث العباءة:

- فلتشربه ولتدخل إلى دارك، أما نحن فعلينا أن ننصرف الآن ونؤجل هذا الحديث، وبعد أن تتحسن حالك، هناك الكثير من الوقت.

ألقى اللئيم نظرة شملتهم، لقد عرف أنه الآن لم يكن لئيمًا أبدًا، وإنما كان مغرورًا، إذ لم يتصور أنهم نسوا وجوده ووجود الآخرين، التفت ليخرج، فقال البدين:

- أما من سلام عليكم؟

التفت قائلاً بلهجة تهكمية:

- طبعًا، ولكن عرفت أن وجودي لم يكن مطلوبًا، فقلت أخرج بكرامتي.

قال الفقير:

- خذني معك.

سار الفقير واللئيم في ضوء الظهيرة القائظ، قال اللئيم:

- أرأيت أخوتك وما يدبرون؟

قال الفقير:

- لا شأن لي بكل ذلك، إنما أبحث عن طعام لأولادي، فهم كثيرون وأفواههم لا ترحم، لا تكف عن الطلب.

قال اللسم

وممن نطلب الطعام يا ذكي؟ الحداة لا ترمي الكتاكيت.

قال الفقير

- أنت لست لئيماً يا لئيم، دعني أذهب إلى أولادي، فلا يسلم الطريق.

افترقا، واتجه الفقير نحو الغرب، بينما اتجه اللئيم نحو داره في الشمال.

عندما تكتم كل أخٍ عن أخيه ما حدث من أمور، وأخفى في صدره ما يعرف، وأسكت في قلبه الأسئلة، كانت هناك الوراقة الوحيدة هى التي لا تزال تسأل.

سألت الوراقة عمها جاحظ العينين:

- لماذا كل هذه الجلبة حول شاتل الأرز؟

قال جاحظ العينين:

- وماذا تظنين بالأخوة أعمامك عندما يجتمعون؟ لا بد أن يكون أحدهم كبشًا لكي ينتظم العقد، ويطأطئ الجميع الرءوس.

قالت الوراقة:

- لا أفهم؟

قال جاحظ العينين:

- لا تشغلي بالك، انظري وأنتِ مكانك ماذا يحدث.

قالت الوراقة:

- لكن رش الماء يصيبنا بالرذاذ!!

قال جاحظ العينين:

– نعم، ولهذا علينا أن نبتعد بالقدر الكافي.

قالت الوراقة

– لا أظن ذلك يفيد كثيراً، فغداً يرشون الماء على مساحة أوسع، ولن يكون هناك من لا يصيبه الرذاذ

قال جاحظ العينين:

– لكنه يصعب منعهم!!

قالت الوراقة:

– الصعب ليس مستحيلاً!!

قال الحكيم للوراقة:

– تلك الحكاية لا نهاية لها، لماذا هاجموا أخاهم الأصغر: ولماذا تراجعوا؟ وما الذي يضمرونه الآن؟ الأمر به أسرار لا نعرفها.

قالت الوراقة:

– كيف يريدون ذلك بعمي شاتل الأرز؟ اليوم أكتب ما حدث وأُقْرِئُهُ للناس جميعًا، ليعرف الجميع من هو كل منهم.

قال الحكيم:

– افعلي إن أردت، لكن الناس يرون الزبيبة في وجه كل منهم، فما تظنين أنهم يفعلون؟

قالت الوراقة:

– لا أعرف ماذا تقصد؟ لا أفهم!

قال الحكيم:

– عندما تبدو الريبة في الجباه، فإن صاحبها يكون ممن لا يمس.

قالت الوراقة

– ومن قال لك أنني أريد المساس بهم؟ إنما أرغب أن أعينهم على أنفسهم، أريد أن أوقظ عقولهم وأفئدتهم.

ابتسم الحكيم:

– هذا خير كثير ياوراقة، أكثر من اللازم في الحقيقة، الخير الكثير في النفوس لا يدع مكانًا لرؤية الشر

قالت الوراقة:

– سأكتب هذا.

وقفت الوراقة عند الجسر، قالت:

– الحق لا يوقفه الكذب، الكذب أعمى، الكذب أعمى.

وعندما مر البدين قال لها:

– عودي إلى دار أبيك، ليس لك أن تبحثي في الحق والباطل!!

قالت الوراقة:

– بل أقول ولا أكتم القول، أبوح ولا أخفي، الكذب أعمى.

سار البدين وتركها واقفة دون إجابة، وفكر البدين: هو ذا اللئيم يحاول أن يكون لئيما، لكن يجب قص جناحيه الآن.

وعندما مر الساهي أصابه الغضب، وقال للوراقة:

– عودي إلى دار أبيك، لا يليق بك الوقوف هنا في عرض الطريق.

قالت الوراقة:

- بل أقف حيث أشاء. ليس لأحد منكم أن يمنعني، وأقول بملء فمي، الكذب أعمى، الكذب لا يخيل على الحق

قال الساهي

- لا تركبي رأسك يا وراقة، أنت صغيرة لا تفهمين!!

قالت الوراقة:

- إذن اشرح لي يا عمي ما لا أفهمه!

قال الساهي

- لن تفهمي، كل ما يجب أن تفهمي هو أن تلزمي دار أبيك لا تبرحينها.

قالت الوراقة:

- هل هو تحديد لإقامتي؟

قال الساهي وقد فقد حلمه:

- افعلي ما أقول وإلا...

سكت ولم يكمل محاولاً كبح غضبه.

قالت الوراقة:

- وإلا ماذا ياعمي العزيز؟ هل ستحاولون قتلي كما فعلتم مع عمي شاتل الأرز؟

ذهب الساهي ولم يرد، الوقت كان يمضي والوراقة لا تفهم.

قال أبو البنات للوراقة:

- زهرة البلد أنتِ يا وراقة، رغم أنني لا أرضِ عنك تمامًا، فابتعدِ عن ذلك الذي يغضب أعمامك، وانتبهِ لما عليك من العمل والإنتاج.

قالت الوراقة

– يا أبي لا أفهم شيئا، أُريد أن أفهم، لا أستطيع أن أبقى هكذا بلا فهم.

قال أبو البنات:

– لا يجب أن نفهم كل شيء، بعض الأشياء علينا فقط أن نصدقها دون أن نفهمها!!

الفارع.. الطالع

كان الفارع فارعًا كما النخيل، شجاعًا كسعفاته القوية، جريئًا كلون ثماره، أسمر كجذعه الخشن، ذكيًا كبادراته في الربيع.

لذلك عندما طرق البدين باب داره ذلك المساء فتح له وهو يبتسم بلا فرحة، وبينما ظل واقفًا يحول بينه وبين دخول داره قال له:

– لعلك تأتيني كما سبق وأتيت الآخرين، إذن فاعلم أنه ليس كل الطير يؤكل لحمه، ولن تتمكن أن تضعني بين فكيك، ولن أحط رأسي في التراب لأتزين بزبيبة كتلك التي تحمل أنت ومن معك.

بهت البدين وسكت قليلاً، لكنه ما كان ليغلب بهذه البساطة، قال باسمًا:

– أهكذا تلقاني وأنا آتيك ببيتك؟

ازدادت ابتسامة الطالع اتساعًا، وقال وهو يعقد ذراعيه يسد المدخل بمنكبيه العريضين وجيده الفارع:

– ما أنت ببيتي، وما كنت لأدخلك، ولا لأعطيك فرصة كهذه، أنت في الطريق وأنا هنا، فإذا كنت في الطريق فلا تتراجع، وإنما أكمل بلا تردد.

ثقل الأمر على البدين، لكنه أراد أن يتمكن منه بأية طريقة، فعاد يقول ليحرجه:

– أتطردني من دارك؟

خرجت الضحكة من فم الطالع صافية لا حقد فيها، في الحقيقة كان الطالع كما كانت أمه، قاطعًا وشجاعًا، وإنما بلا حقد، قال الطالع:

- إذا كنت تحب هذه الفكرة فلا تتردد في الثقة بها

كان الرد مفاجأة كعادته، الحقيقة أن الطالع نفسه كان دائماً مفاجأة، ولد الطالع مفاجأة بعد أن كانت أمه قد كبرت وما عاد ينتظر منها إنجاب، وكانت بدينة كبيرة البطن حتى لم يشاهد أحد حملها، وكتمته هى تتخوف أن يكون وهما، فهى الزوجة الوحيدة من زوجات الأب التي لم تنجب ومع ذلك أبقى عليها، كان هذا غريباً لأنه قال يوم أن ورث داره من أبيه - جدهم الكبير - وكان ساعتها على فراش مرضه الأخير، وعدا لهذا الجد الأكبر:

- لأملأن دارك هذي بالبنين ولأجعلن منهم عزوة ملء السمع والبصر، ولأزرعن الأرض بعرقهم، ولأكونن أكبر من في هذه القرية عدداً وثروة.

لكن أم الطالع لم تنجب لسنوات عديدة، كان الأب يقول دائماً: تزوجت كل تلك النساء لأفي بوعدي لأبي، أما هذه فقد تزوجتها لتريح قلبي.

كانت قريبة من قلبه لما تتمتع به من ذكاء وقدرة على السخرية، كانت تضحكه حتى النخاع، وعندما كان يبيت في غرفتها كانت ضحكاته الصافية تملأ الدار، فكرهتها الأخريات. وامتلأن منها غيرة وحسدا، كانت غريبة عن القرية، ولذا لم تهتم كثيراً بكل تقاليدها، ولم تتخذ صديقة من بين الزوجات اللاتي كن يحسدنها على حب الأب لها، كانت تقول: عوضني الله عن بعدي عن أهلي وديارى رأفة رجلي وبره بي.

لكن الخوف من مرور العمر كان يهجس في داخلها بين الحين والحين، فتتخذ من حجرتها ملجأ وتقضي بعض الوقت في اكتئاب، ورغم ذلك فما أن يأتي الوالد ليبيت لديها حتى يتجدد أملها وتكاد تطير فرحاً.

مرت الأيام، كبر بها السن، كل يوم تقول لنفسها: الآن وإلا فلن يحدث أبداً. ولكن هيهات، بدأ الطمث ينقطع عنها فمات أملها، وكأنما كان الوقت حينئذ فقط، قد حان، فبعد شهور كانت تحس الجنين يتحرك في بطنها، تشككت في الأمر وانتظرت أن يبين

الحق، فكتمت حالها، ولم تخبر أحدا، وفى الحقيقة كانت بدينة لدرجة أن كل ما لاحظته الأخريات عليها هو أنها قد ازدادت بدانة، حتى كانت إحداهن تقول للأخرى: أين ستذهب هذه؟ تأكل مثل ثور وتزداد بدانة كل يوم، فمتى تقف؟

ربما كانت أم وارث العباءة هى الوحيدة التي خالجها شك، كانت الأم الكبرى تنظر إليها من حين لآخر في دهشة من مظهرها، لكنها كذبت نفسها، وقالت: ليس لي إلا الانتظار، والخبر الذي هو اليوم بفلوس يكون غدا ببلاش.

وعندما جاءها المخاض كانت جالسة أمام الفرن وبجوارها تجلس الزوجة الكبرى العجوز - أم وارث العباءة - وكذلك أم الساهي، وبينما كانت تلقى بأحد الأرغفة من فوق المطرحة إلى الفرن، جذبت يدها في عصبية وقامت واقفة تمسك بأسفل ظهرها، نظرت المرأتان إليها، لم يكن معتادًا من هذه المرأة الشكوى والتوجع من أي ألم، حتى أنهن كن يقلن دائمًا أنها كما الجن، لا تمرض ولا تحس بوجع، وقالت الزوجة الكبرى:

- ماذا بك يا امرأة؟ هل ركبك عفريت؟

قالت أم الطالع، وهى لا تزال على وقفتها تلك:

- يبدو أنها آلام الوضع!

ضحكت المرأتان، وقالت أم الساهي ساخرة:

- وضع؟ أي وضع؟ هل طاش عقلك ياولية؟

قالت أم الطالع:

- أحس آلام الوضع، وسألد الآن.

قالت أم الساهي:

- ما زالت تردد نفس الكلمات، أما زلت تحلمين بالإنجاب بعد كل هذا العمر؟ أما انقطع طمثك يا امرأة؟

قالت أم الطالع وهي تخطو نحو حجرتها تسير ببطء متثاقلة، ولا تزال تضع يديها على أسفل ظهرها.

- كنت أظنه انتطاع الطمث، حتى تحرك الجنين ببطني منذ أشهر، وسألد الآن.

قالت العجوز وهي تتمعن فيها:

- هي تقول الحقيقة، لقد شككت في أمرها وكنت أحيانًا أقول لنفسي هذا التغير في وجهها يبدو كوجه الحامل ولكني كذبت نفسي، قومي ساعديها.

أسرعت أم الطالع تدخل حجرتها، وأسرعت أم الساهي خلفها، ورأتها عندما جلست القرفصاء وهي تلم ثوبها لأعلى، وإن هي إلا لحظات حتى ظهر رأس الجنين أسفلها، مدت يدها، وبيدها، بنفسها، أخرجت جنينها، وأم الساهي ذي اللحية واقفة لدى بابها تشهد هذا بنفسها، وقالت:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد ولدت المرأة وحدها، ولم نعرف لها حملاً من قبل، والله لولا أني شهدتها بنفسي تشده من رحمها ما صدقت أنها حملت ولا ولدت.

قالت أم الطالع وهي لا تزال جالسة والجنين بيدها والحبل السرى لا يزال عالقًا بها:

- لا تقفي هكذا كبغل عجوز، ساعديني.

قالت المرأة بين الدهشة والسخرية:

- أساعدك؟ عَلاَم أساعدك؟ ها أنت قد ولدت، وماذا تريدين مني؟ ما من شيء آخر يمكن فعله!

نظرت إليها فانتبهت من دهشتها، وقالت وهي تتحرك:

- نعم، إليك ببعض الثوب ضمي جنينك عليه، وولد أيضًا؟ يافرحة الأب بما أثمرت بطنك، اقطعي الحبل السرى وهاتيه لأربطه له.

لكن أم الطالع ربطت له السرة بنفسها، ولفته بالثوب وجلست مرة أخرى لتخرج خلاصها، ثم قامت فأرضعته، ووضعته في فراشها، وتركته عائدة إلى الفرن لتكمل الخبيز

في الجلسة المسائية قال الساهي ذي اللحية للبدين:

- كانت أمه تضحك دائما، عندما كنت صغيراً كنت أحبها، وكانت تعاملني بلطف بالغ، لكن أمي اعتادت أن تضربني كلما رأتني أطلب منها شيئا، كنت أفعل ذلك ببساطة فقد كانت أقربهن إجابة، رغم بدانتها، لكن أمي لم تكن لترضى ذلك أبدا، وعندما رأت ذلك منها بعدت عني، ولم أفهم، جئت أتمسح بها يوماً وأطلب طعاما فربتت على ظهرى قائلة: اطلب ذلك من أمك، فهى أولى بخدمتك. فلما بكيت، ابتسمت برقة قائلة: هل أعد لك الطعام على ألا تخبرها بأنني فعلت؟ فرحت بذلك جداً، لكننى عندما كبرت ورأيت كم تتأذى أمي منها كلما كان أبي يبيت عندها، كرهتها، وكرهت ابنها، وكرهت أبي في ليلة مبيته لديها.

لم تكن قد أنجبت الطالع بعد، وكانت تحب الأطفال كلهم، وحتى بعد إنجابها الطالع، ظلت تحب الأطفال كلهم، ولا تبخل بإجابة طلباتهم، لكن في هذا الوقت كنت أنا قد كبرت وتعلمت أن أكرهها.

ورغم كل ذلك، فيوم موتها كان أشد علىً من يوم موت أمى، ولم يحدث أبداً أننى بكيت إلا في ذلك اليوم، هربت من المأتم والجنازة وأخذت طريقي إلى الهيش، ثم عبرته إلى الكوم حيث التيه، ودخلت في التيه حتى لا يجدني أحد، وهناك جلست وحدي، وبكيت ما شاء لي البكاء، حتى احتقن وجهي وذبلت جفوني ففرقت في نوم لم انتبه منه إلا..

كان البدين يسمع بانتباه وعجب، ورغم أن الساهي كان يبدو مسطولاً، إلا أنه توقف هنا، وبدا وكأنه نسى ما كان بصدد قوله، وحثه البدين قائلاً:

- متى انتبهت من نومك؟ ماذا حدث؟

نظر الساهي منضايقًا:

ماذا كنت أقول؟

- كنت تتحدث عن يوم ماتت أم الطالع الفارع.

قال الساهي الذي تحته دواهي.

- وماذا يوم ماتت أم الطالع؟

- ماذا حدث في التيه؟

رفع الساهي يده إلى جبهته يخبط عليها بقوة، وأغمض عينيه قائلاً:

- انس الأمر.

كان الطالع مفاجأة، وعندما كبر كان مفاجأة، طلع النخل مفاجأة، قال الوالد: هذا الولد مفاجأة، دعوه يطلع النخيل.

وهكذا كان.

صنع لنفسه حزامًا من الجلد يجمعه والنخلة، يضعه حول جذع النخلة ويستند عليه بظهره ويصعد، ثم يرفعه لأعلى ويعود يصعد، حتى يصل إلى قمتها.

يطلع النخلة، يأتي بالطلع، وينزل ثم يبدأ في صعود النخلات الأخريات ليوزع الطلع عليها، وعندما تدور الأيام، وتثمر النخلات، وتتلون ثمارها بألوان حمراء أو صفراء زاهية تخطف العين، يعود الفارع لطلوع النخل، يقطع سبط البلح ويلقيها، نخلة بعد نخلة، والأطفال يتبعونه ليلتقطوا بعض الثمار التي تنفرط، الأطفال يتبعونه كما كانوا يتبعون أمه، ويتنادون: ها هو الطالع الفارع يطلع النخل.

كان الطالع يشبه أمه في نواحٍ أخرى، منها أنه لم ينجب إلا طفلاً واحداً، ولم يحظ بود كثير من زوجات أبيه الأخريات، ولا من بعض أبنائهن، لولا أن الأبناء عندما كبروا، أرادوا أن يظهروا بمظهر الأخوة أمام أهل القرية الآخرين.

أما الطالع فكان زرعًا وحيدًا، كالنباتات الغريبة التي لم يزرعها أحد، ولما انتهى يوم الجماعة الأول بالفشل الذريع لم يقبل على الذهاب إلى يوم الجماعة الثاني، فرغم العدد الكبير الذي حضر هذا الاجتماع السري فقد كان يعرف، وكان يسمع من موقعه في بيته معظم التآمرات المرسومة، وقد كان الطالع الفارع يستطيع الرؤية على بعد كبير، وعندما رأى الزبيبة قد بدأت تظهر في جبهة وارث العباءة عرف أن الأخ الأكبر قد أراح رأسه على كتفي الساهي والبدين، ولذا تأكد أنه غير قادر على الدخول في الجماعة، فلم يشارك في المؤامرة، ولم يخرج على أخيه الأصغر حاملاً فأسه.

اكتفى الطالع بطلوع النخلات، يأتي بالطلع، ويعود إلى الأخريات يلقحها، وعندما تطرح النخلات بلحها يجمعه، ويغسله في الترعة، ثم ينشره ليجف، وتأكل القرية التمر طوال العام من يدِ الفارع الطالع.

وهكذا كان الطالع لا يقول، إلا في حالات قليلة حين يفيض به الكيل، وربما حتى حينئذ لا يقول، فحتى يوم صرخة الوراقة كان – مثله في ذلك مثل كل من بالقرية – لا يقول، وقد يفعل فقط، بل الحقيقة أنه لم يكن يفعل في الغالب، اللهم إلا في ذلك الأمر الخاص بالبيت، وكان الفعل الوحيد الذي أصرَّ عليه هو ألا يبيع.

وفي هذا الأمر كانت له أسباب، وكان يراها قوية.

فلما كان أن طرد اللئيم من الدار الكبيرة التي أخذها من البدين عوضًا عن داره، عرف اللئيم أنه لم يكن أبدًا لئيمًا، ودار في بيوت البلدة يبحث عن جوار فلم يُجِرْه أحد، وفي النهاية فتح له الطالع بابه وقال: كن عندي حتى يكون لك بيت آخر.

لم يكن هناك من سبيل بعد أن أضاع بيته وبعد أن طرد من البيت الكبير وأدار الجميع ظهورهم له، إلا أن يبني بيتًا جديدًا، جاء البنا سائلاً أن يبني له دارًا، وفكر البنا:

– ولِمَ لا؟ ربما نبني لك دارًا في الهيش!! فهناك متسع للجميع.

وكان في الهيش بعد ذلك عمل كثير، وحوارات أكثر، وربما جاء اليوم الذي جلس شاتل الأرز والطالع يتجاذبان الحديث، كان شاتل الأرز يبدو متعبًا، وكان الطالع يمتلئ حماسًا، ويحلم بمستقبل جميل، ويحادث شاتل الأرز، ربما فقد بعض الحرص عندما قال له يوما ما قال.

يقول الطالع لشاتل الأرز:

– عندما يبدأ الأمر بأنهم يقولون لك اسمع، تعال إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن الوالد رحمه الله ولا يجب أن نتحدث عنه بغير ذلك، فإذا قلت أنك توافق على ذلك ثم نسيت يومًا أن تلتزم به أهالوا عليك التراب، فإذا فعلت شيئا قالوا لك لم يقل الوالد هذا أبدا، فإذا قلت لهم أن الوالد لم يكن يعرف ما تدور إليه الأيام، قالوا أنك قد أسأت ونسيت أن تتلو الرحمة على والدك، فإذا قلت لهم جل من لا يسهو، قالوا ذلك من أمر الشيطان، فلما تسلم لهم بهذه البداية يقولون لك، حسنا، من الثابت والمتعارف عليه والموصى به والمذكور في المتون أنه لا تجوز على الميت إلا الرحمة، وقد قال الوالد رحمه الله أن الميت لا تجوز عليه إلا الرحمة. فإذا زدت من مجاراتهم على ما هم فيه من طغيان لم يبق لك إلا أن تنسى معاشك وزرعك وأهل بيتك، لتتأسى بالترحم على الوالد، رحمه الله.

وربما كان مثل هذا الحديث الغبي من الفارع الطالع أحد الأسباب التي أدت إلى أحداث جسام، ولكن شاتل الأرز كان من أصحاب الثروة في النهاية، ولم يحتمل الحياة في الهيش طويلاً. لكن هذا أمر آخر وسنرجئ الحديث فيه حتى نعرف كيف وصل شاتل الأرز بحماس شديد البراءة إلى الهيش.

الخلاص - الفقير

كان الأخ الأصغر قد قطع شوطًا طويلاً، توقف ينظر حواليه، فوجد أنه قد وصل إلى أطراف البلدة، وبالقرب منه بيت أخيه الفقير، أما ناحية الغرب فقد وقفت فيها، بينه وبين الأفق البعيد، مقابر البلدة، حيث يقبع أبوه، الذي أنجبهم جميعًا، هؤلاء الذين يأتمرون به اليوم ليقتلوه، ترجل من على ظهر حمارته العرجاء، ربت على ظهر كلبه الأمين، واستند على جذع شجرة الكافور العجوز، والتقط بعض أنفاسه.

خلف الكافورة العجوز كانت تمتد أرض واسعة من الأعشاب الجافة، جعل ينظر إليها، وقال في نفسه: لو كان لدى هؤلاء عقل، أما كان من الأفضل أن يصلحوا هذه ويزرعوها بدلاً من الطمع في أرضي، ألا تصلح هذه لإنتاج الكثير؟ لكن الإنسان قد لا ينظر إلا إلى ما في يد أخيه فلا يرى ما تحت قدميه من الخير.

جلس تحت الكافورة العجوز، ينتظر الظلام حتى يستطيع الحركة، وهو يفكر فيما عليه أن يفعل، الآن إما أن يترك البلدة بما فيها ومن فيها، يهرب بامرأته وجلده من مصير لا يعرف نهايته، أو يبقى ليجاهد عدوًا جاهلاً، أو أخًا جاهلاً، كلاهما سواء.

من أين يبدأ؟ بين أشعة الشمس الغاربة، وظلال نهاية اليوم الذاهب، بدا خيال مقدم عرف فيه أخاه الفقير يتجه إلى بيته، وقف يلوح له فتلفت حوله يخشى أن يراه أحد، قال له:

- أإلى هذه الدرجة تخشى وأنت الذي رفعت فأسك اليوم عليَّ تبغي قتلي؟

لم ينبس الفقير، بل وقف ذاهلاً لا يعرف ماذا يفعل أو أى شيء يقول، قال الأصغر:

– أريد منك أن تأتي بامرأتي لكي لا أتركها وحدها في الدار هذه الليلة، أخشى أن يحاولوا الغدر بها وهي امرأة وحيدة قليلة الحيلة.

قال الفقير هامسا لنفسه:

– قل ياقرد أي شيء يمسخونك؟ ماذا تأخذ الريح من الشراقي؟ لماذا لا أكون شجاعا مرة واحدة، لن يضيرني شيء، لا مال لي ليأخذوه، لا أرض ليستولوا عليها، لا ثياب تنفعهم، ولا محصول يحرقونه، فقط سيذكر أحفادي كم كنت جبانًا أو شجاعًا، سأخزيهم أو أرفع رءوسهم، ثم إن عشائي كان دائما على الله.

قال:

– يا أخي أحضرها، لكن ماذا تنوي وإلى أين تهدف؟

قال شاتل الأرز:

– والله لا أعرف حتى الآن، لكن أريدها بمأمنٍ حتى أفكر في هدوء.

قال الفقير:

– أدخل إلى داري، سآخذ امرأتي معي حتى نأتي بها فلا يشك أحد في وجودك عندي.

قال شاتل الأرز:

– ألا تخشى أن يجدوني في دارك فتعاقب بما لا ترغب؟

همس الفقير:

– يا أخي أنت أعلم بما في الأمر، فأنا لا أستطيع أن أقاوم طلبًا لهم، هم أكثر عدة وقوة، ويمكنهم أن يقطعوا عيشي وأنا رجل فقير كثير العيال، أعمل تحت إمرتهم، عيالي يريدون الطعام، ولا أستطيع أن أمنعه عنهم، لا أقدر أن أقاومهم، لا أقدر.

ضحك الأصغر بمرارة:

- قال أبي يومًا، ليس هناك فقر. هناك قلة رأي، يا أخي لديك كل هذه الأرض تطل عليها كل صباح وتترك غيرك يملكك؟

نظر الفقير حوله، وقال بمرارة:

- أتظن لو أنني أصلحت هذه الأرض وزرعتها أأكون بمنأى من طمعهم؟ ما حالك اليوم وقد ملكت أفضل أرض وأوسعها؟

- وهل أنت اليوم بمنأى منهم؟ ماذا بك؟ ألا تعقل أي الأحوال أصلح؟

- النتيجة واحدة على أيةٍ حالٍ كما يبدو، فلماذا التعب؟

- النتيجة ليست واحدة على أيٍ وجه من الوجوه، فحالك حال العبيد، أما الحال الأخرى فهي حال الحُر.

الطعام من أين يأتي، هذا هو السؤال، قال الفقير لنفسه: أخي هذا عنده حق، ماذا يكون لأولادي مني عندما يكبرون؟ ثم ماذا يكون منهم اليوم؟ لو أعطيت كلا منهم فأسا في الصباح لزرعنا بعض هذه الأرض في أيام قليلة، ولذاقوا من عمل أيديهم في موسم واحد، لكن السؤال هو ماذا يفعل أخوتي الآخرون عندما يروني أزرع بنفسي، لن يرضيهم أن يفقدوا خادمهم الأمين، سيكون هناك لغط كبير.

قال:

- هل تعينني على زراعة هذه الأرض ويكون لك فيها؟

ضحك الأصغر:

- الأفضل أن تستعين بأولادك ولا تستعين بي، فقد أصبحت لعنة لا تفيد، المهم الآن أن أحاول المقاومة.

قال

- أعنّي عليّ زراعة هذه الأرض وأنا أقف بجانبك فلا تكون في محنتك هذه وحدك.

فكر الأصفر، من الطبع أن اثنين أفضل من واحد، فإذا كانا معًا فسيكونان أكثر قوة، ولكن أمام عدد كبير كهذا من الأخوة.. ما الفارق؟

ما الفارق؟

قال شاتل الأرز:

- فأت بأبنائك، وفي الليل سنخرج معنا فؤوسنا، نقلع الأعشاب، وفي الصباح تحملونها لبيعها في السوق فتشترون بثمنها طعامًا وتقاوي، نزرع كل يوم ما نعده حتى لو كان قليلاً، سنعمل بلا كلل حتى لا تضيع وقتًا.

وفكر قليلا، ثم قال:

- لا تأت بامرأتي، سأذهب أنا إليها، لابد أن الخطط قد تغيرت الآن لديهم ولن يفكروا في قتلي الآن حتى يعيدوا ترتيب أمورهم، عليّ أن أنتهز هذه الفرصة لأعد العدة لهم.

عندما فتح الصباح عينيه، رأيا الأخ الأصفر مع الفقير وأولاده وقد خلعوا الحشائش من مسافة عشرة أذرع على الأقل، وبعرض يزيد على خمسة عشر ذراعا داخل الهيش.

وعندما ابتسم الصباح مظهراً سنه الذهبية كانوا يستريحون وقد وضعوا مناجلهم وفئوسهم جانبا.

مرت الوراقة بجوار الهيش، فألقت تحية الصباح، دعوها فجلست بينهم، قالت لهم: ما أجمل ما تفعلون، هل أساعدكم؟

قال شاتل الأرز يا ابنة أخي، أنت تعرفين دائمًا أنه مرحبًا بك، ونحن نحتاج مساعدتك، لكن الزمن الصعب قد يجعل من ذلك أمرا لا يفيدك، بل قد يلقي بك في أمور لا تحبين الخوض فيها.

قالت الوراقة: لماذا يا عمي؟ الخير هو الخير في كل وقت.

قال شاتل الأرز: بكل أسف، ليس في كل وقت يا وراقة.

مر البدين راكباً حماره، نظر إلى ما فعلوا، وبسمل، بالأمس كان الهيش أرحب واليوم يضيق، صدق ظنه أن الأصفر لن يجد من يقف إلى جواره سوى هذا الفقير الغبي.

قال ضاحكًا:

– أخي العزيز الأصفر، أبحث عنك منذ الأمس.

قال الأصفر دون أن ينظر:

– أوليس هناك عمل يشغلك قليلاً عني؟

ازدادت ابتسامة البدين وهو يربت ظهر حمارته العفية:

– أخي، ألا تعلم كم أقلق بشأنك؟

قال الأصفر بلا تردد:

– أعرف ذلك جيداً، ولهذا فأنا شغلك الشاغل في هذا الأوان.

تلفت البدين حوله مرة أخرى:

– فماذا تفعلون؟

قال الأصفر وهو يأخذ لقمة من الجبن القديم الذي أتت به امرأة الفقير:

– كما ترى.

رفع الفقير فأسه ليريحه فوق كتفه ناظرًا أمامه، ورأى أرض الهيش التي تعرَّت، قال

– تلك بداية.

قال الأصغر:

– بل تلك هى البداية.

قال البدين ضاحكًا:

– رميت بنفسك في الأتون يا فقير، فمن سيأتي أولادك بالخبز الليلة؟

قال الفقير:

– الله يتولانا!

قال البدين:

– وأنت يا وراقة، مالك وهذا؟ لِمَ لا تبقين في بيت أبيك؟

قالت الوراقة:

– ماذا يضيرك يا عمي لو كان لصاحب العيال أرضا تستره؟

قال البدين:

– لا يضيرني ذلك في شيء، لكن هذا الهيش ملكي، وكنت أنوي أن أقوم بزراعته؟

أكمل الأصغر مضغ طعامه، ثم قال:

– الهيش متسع، ويمكنك أن تأخذ منه ما تشاء.

وقالت الوراقة:

– وفي الهيش متسع للجميع

قال البدين

- عمومًا هذا طيب، فأنتم كما أرى ستوفرون عَلَىَّ الجهد والتعب

بهت الفقير، هذا ما لم يعمل حسابه في الحقيقة، قال وقد داخلته خشية

- ماذا تقصد؟

نظر الأصغر نحوه:

- لاترد عليه!

قال الفقير مرتاعًا:

- ولكن ألا ترى أن كل ما نفعل سيكون هباء؟

قال الأصغر:

- لا يمكن أن يكون الخير هباء.

قال الفقير:

- أنت إذن ترى معه أن أعمل ويأخذ جهدي.

قال الأصغر:

- يا أخي لن يأخذ أحد جهدك ما لم ترد أنت ذلك.

قال الفقير:

- أنت تتحدث هكذا لأنه ليس لديك ابن تخاف تشرده.

قال الصغير بألم:

- يا أخي صدقني، لدى كل هؤلاء الأبناء أخشى عليهم.

وأشار بذراعيه إلى أولاد أخيه، وإلى الفضاء الرحب حولهما.

ضحك البدين وهو يدير رقبة حماره بحركة من عصاه القصيرة

- كدت تقتل بالأمس، فكيف بك اليوم لم ترتدع؟

ارتعدت الوراقة عند هذه الكلمات، واحتضنت الأطفال في صدرها، وقالت

- ها أنت تقول ما لم تقله بالأمس.

قال البدين ساخراً

- أنتِ تضعينني في موقف صعب يا وراقة، لماذا تحضرين في هذا البكور؟ ولماذا تقفين هنا بينهم؟

والتفت إلى شاتل الأرز قائلاً

- لِمَ لا تجيب؟

قال الأصغر:

- ها أنت تسفر عن أنيابك، لكني سأجيبك كما تشاء، عليك أن تعرف أنني إنما أحاول أن أصل إلى الحق.

علت ضحكة البدين عما قبل:

- وماذا ترى أنه الحق؟

نظر شاتل الأرز في وجوه أبناء أخيه المتحلقين حول الجبن الأسمر، ينظرون إليه ينتظرون ما يفوه به، قال بهدوء:

- الحرية والسلام، هذا هو الحق.

لكز البدين طرف ساقه ليطرد ذبابة تائهة:

- وماذا فيما تعمل يؤدي إلى الحرية، وهو بالقطع لن يأتي لك أو للفقير بأي سلام؟

وهز ساقيه حول بطن الحمارة، فانطلقت عائدة.

جلسات المساء

لم يكن الأخ الأكبر هو الشريك الدائم لجلسات هذين الأخوين المسائية، ولا أي من الأخوة الآخرين، كانت تلك الجلسات يقضيانها في التدخين والحكي، وكان كل منهما يبدي مقدرته في الحكي خاصة عندما يعمل الدخان والحشيش المحلاة به أحجار المعسل عمله، ينظر الأخ البدين إلى أخيه الثالث في إعجاب قائلاً:

- يالك من داهية، كيف توصلت إلى هذه الفكرة المذهلة؟

كان الأخ الثالث في أغلب الأحيان يغضب بسرعة، ولم يكن ذلك صعباً بالنسبة له، فكما قلت لكم قبلا، كان يفكر هكذا: الأفضل أن آخذهم بالسوط فلا يمكن لأحد أن يغلبني.

لكن في أحيان قليلة، كان يحس ببعض الكسل إزاء إبداء رد فعل كهذا، وكان هذا في الغالب الأعم عندما يعمل الحشيش عمله في دماغه، ويحس بذلك الخدر اللذيذ ولا يصبح قادراً على أي فعل من شأنه أن يعكر صفو أفكاره التي تبدأ حينها تحوم حول أم العيال، يذكر أنها ربما تكون نائمة الآن، لكنه سيوقظها وقتما يعود على أى حال، وستمتثل لطلبه، فقد علمها أن ذلك من أهم واجبات الزوجة المؤمنة، فإذا هى لم تفعل لعنتها الملائكة من فوق سبع سماوات، وكانت في الحقيقة تخشى لعنة الله كثيراً مما كان يثلج صدره دائمًا، ماعلينا، المهم أنه في الوقت ذاته، وعندما سأله هذا السؤال، وكان ذلك في أعقاب الشجار الذي كاد يحرق كل شيء بينه وبين وارث العباءة، والذي انتهى بقرار التخلص من شاتل الأرز، لم يرد الساهي على أخيه البدين فوراً، وإنما نظر بتأنٍ، وحاول أن يفكر بشكل أكثر هدوءاً، ثم سأل ببطء:

- أليست هذه هي المرة الثانية التي توجه إليَّ فيها هذا السؤال بالتحديد؟

تعجب البدين، ورد قائلاً:

- هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها من فمي.

قال الساهي في تعجب:

- هل تعني أنني أتَبَلَّى عليك؟

لم يكن الأخ البدين راغبًا بالمثل في أية شجارات، وخاصة بعد أن بدا بينهما ما يشبه التصريح بأن مصالح كل منهما تلتقى مع مصالح الآخر.

تمتم البدين قائلاً:

- اسمع، بيني وبينك، هذا ما فعله الوالد رحمة الله عليه، أليس هو من فرق بيننا هكذا ولم يعاملنا سواء؟ بل جعل منا الغني والفقير، والقوى والضعيف، والمثقف والجاهل وذا الحرفة والصايع، أضف إلى ذلك زواجه من عدة نساء والذي جعل منا الأبيض والأسمر وذا العاهة، ومن يتفاخر بأخواله ومن يخجل منهم.

لم يتحمل الأخ الثالث أكثر من هذا، بل كاد هذا الكلام يتسبب في طيران أثر المخدر اللذيذ، وكان لابد من توضيح قاطع، ولذلك فقد قاطع أخاه قائلاً:

- اسمع أنت، بداية يجب أن نتفق معا أن الوالد تجب عليه الرحمة أولا، ويكون هذا منطلقنا، فإن اتفقنا على هذا المبدأ الأساسي يمكننا بعد ذلك أن نتناقش فيما لا يمس ذاته بسوء.

صفق الأخ البدين فرحًا:

- أنت رائع، هذه يجب أن تكون الصيغة الأساسية، وأنا أوافق على ذلك بالعشرة، لماذا يا أخي العزيز لم تعلن ذلك منذ البداية، بهذه الطريقة يمكننا أن نسيطر على كل الأمور.

هذا الغباء الذي كان يبدو به أحياناً البدين كان هو أشد ما يضيق به الساهي، فقد كان يفكر أن البدين هذا سوف يكون ساعده الأيمن، فكيف يكون وهو بهذه السذاجة، هز رأسه نافضاً فكرة أنه قد يضطر يوماً للتعامل معه بشكل مختلف، ربما مثله مثل الآخرين تماما. لكنه عاد فقال لنفسه: لماذا لا أنظر إلى الجانب المشرق، فهو يصلح لأن يكون قائداً طيباً.

ثم عاد وفكر، ونحن الآن نعرف كيف يبدو حين يفكر: وهل يصلح للقيادة؟ ألا ينقلب إلى ما يصلح له تاركا كل ما نريد وهكذا يصبح حاكماً لنا أيضاً، نحن الذين اصطنعناه؟

وعاد يفكر في نفسه أيضاً: هناك من يصلح للقيادة بشكل أفضل ويقبله الجميع، وارث العباءة هو الحاكم الطبيعي على أية حال، لا أظن أنه سيأتي اليوم الذي نحتاج لغيره، أو على الأقل ليس ذلك قريباً جداً، فهو لين، ويسهل التعامل معه، ألا يكون وارث العباءة أقرب؟ وهم يستمعون إليه ومن السهل قياده.

كان ذلك في هذا الوقت المبكر بعد موت الوالد، وتلك كانت بعض حالات هذين الأخوين، ولكن كانت هناك حالات أخرى، كذلك اليوم الذي سبق شراء البدين لهذا البيت البعيد الذي يلتقيان فيه الآن، كانت الجلسات القديمة تتم في بيت أحدهما، ويشوبها حذر وتوجس أكبر، كان الساهي في أسوأ حالاته، وكان يحس بتدبيرات غريبة بين البدين واللئيم، يومها جلس مضطجعاً فيما يقارب الرقاد، ونظر إلى البدين نظرة خالية من المعنى، أو حاول أن يجعلها هكذا، شد من فم الجوزة نفساً طويلاً، وقال ببطء:

- ماذا يفعل اللئيم هذه الأيام؟

لم يكن البدين من محبي المفاجآت دائماً، ومع ذلك فقد أجاب بثبات:

- أظن أنه وجد ملجأً عند الطالع، وربما يبحث عن مكان يبني فيه بيتاً جديداً.

قال الساهي بنفس الصوت الخالي من اللون:

- مشغول إلى هذه الدرجة؟

ظن البدين أن هذا الأخ يكثر من الإصرار على ذكر اللئيم، قال بحدة

- ومن قال لك أنني أعرف عن اللئيم كل أخباره؟ هل قيل لك أنني وصيفه أو وكيله؟

قال الساهي الذي تحته دواهي باسماً وساخراً:

- بل قيل لي أكثر من هذا.

هدأ البدين قليلاً، هل يترك نفسه للغضب، تسللت ابتسامة خفيفة، وقال ببطء:

- كل ما قيل لك صحيح، اللئيم أخي وعلىَّ أن أتحمل كل ما يشكو منه، بل وأن أدير له خدي الأيسر.

ضحك الساهي:

- أثلجت قلبي، كنت أظن الغضب يعميك.

- الحقيقة أنه يحدث لي هذا أحياناً، وهذا ما يجعلني أبادر بالاعتذار.

هكذا كانت بعض أمسياتهما، والبعض الآخر، كذلك اللقاء بعد وقفة الوراقة على الجسر؛ كان شديداً. في تلك الليلة كان الساهي في أشد حالات الضيق، وعندما عمل الحشيش في رأسه، بدأ يفضفض.

قال الساهي:

- من يأتيني بالغادر؟

قال البدين:

- ولماذا الغادر؟ ما حاجتك إليه؟

قال

- هو يقدر

قال

- ولماذا لا نقدر نحن؟

قال الساهي:

- تبدو عليك البراءة، وأنت تطالب بالمقدرة، اسمع، تعرف أنه لا يبدو أن الغادر يحفل بالقيود التي تكبلنا، ولهذا هو يقدر.

قال البدين:

- عن أيةٍ قيود تتحدث؟

قال الساهي:

- لم يكن الغادر أخًا لنا، ولهذا فلن يحفل بما يفعل ضد أحدٍ منا، وأخوك الأصغر واحد منا، والوراقة ابنة واحد منا، أليس كذلك؟

قال البدين:

- يالك من إبليس، لكن فلتعلم أنه لا يهمني ما تفعل بشاتل الأرز، أما الوراقة فلا، إنها صغيرة، ثم هى امرأة، لا يجب أن نفعل شيئا بامرأة.

- ألم أقل لك أن الغادر لا تكبله القيود التى نضعها لأنفسنا؟

سادت لحظة صمت، فكر البدين ما الذي يمكن أن يوقف جشع هذا الأخ، ولكنه هز كتفيه قائلاً:

- أقول لك أنها امرأة وفتاة صغيرة، لا تحاول إيذاءها.

أحس الساهي أنه انزلق إلى المحظور، وكان دفاعه التقليدى الذي يجيده دائمًا هو الحل، قال الساهي:

- كيف تقول هذا؟ أتظن أنني يمكن أن أُسيء إلى امرأة أو غيرها؟

بدأ يعود إلى حالة الغضب التي يستخدمها في الغالب في مثل هذه الأحوال

– ثم كيف تتهمني بشيء كهذا؟ ألا ترى أنك تجاوزت معي حدوداً كثيرة؟

لم يبهت البدين بهذا الكلام، ولا انتقلت إليه قصة الغضب هذه، وإنما أجاب بمنتهى الهدوء.

– لا داعي لأن تستخدم هذه الطريقة معي، أنت تعرف أنه لا أحد يعرفك كما أعرفك، ولا أحد يمكن أن يتحمل أن يعرف حقيقة نفسك.

زاد الساهي غضباً:

– كيف تجرؤ...

قال البدين مقاطعاً:

– قلت لا داعي لهذه اللعبة، أنت تعرف كما أعرف أنني أفهمك تماماً، وأنك تفهمني كذلك، وأنه لا مبرر لأن ندخل الآن في مثل هذه الحال التي سوف تؤدي بنا إلى الخراب، لكني أكرر عليك أنه لا يلحق بالوراقة ضرر، ولتعلم أن الكثيرين يهتمون بها.

هدأ الساهي قليلاً متسائلاً:

– الكثيرين؟

قال البدين:

– بداية والدها وأنت تعرف ثقله، ثم جاحظ العينين يحبها ويهتم بها، وربما يتمناها لابنه، والبنا نفسه يهتم بها كثيراً، وأظن أنه واقع في غرامها، ثم الحكيم، فهي تلميذته المقربة إليه، ولا تستثن وارث العباءة فهو يراها ابنة له منذ كانت تأتي إلى بيته للمساهمة في العناية بجدها، وشاتل الأرز، يعتبرها من أقرب الناس إليه لتفهمها موقفه ووقفتها معه، ولأنه كان من أكثر الناس قربا منها منذ طفولتها، حيث يتقاربان في السن. أما الطالع...

قاطعه الساهي

- وأنا أيضا أهتم بالوراقة، ألا تعرف أنني كنت أتمناها أيضًا لأبني؟

رفع البدين حاجبيه

- أيهم يا حليم؟

قال الساهي:

- وما زلت أريدها. بل وسأذهب الليلة إلى أبيها، وسأحادثه بشأنها.

ابتسم البدين:

- لا بأس، بل هى فكرة رائعة، ربما يمكنك بذلك أن تحتوى الوراقة وتتفادى جنونها.

لم ينطق الساهي بكلمة أخرى في هذا الأمر، قام واقفًا، وألقى تحية مقتضبة، واتجه خارجًا.

ولا نعرف في الحقيقة هل كانت هذه المناقشة، أم ما تلاها بعد خروج الساهي من أحداث، هو ما أدى إلى ما حدث للوراقة، لكن ما حدث في تلك الليلة هو أن الساهي لم يذهب إلى أبى البنات كما كان عازمًا، فقد جد في الطريق ما جعله يعيد التفكير في الأمر.

وعلمنا التاريخ والقصص المروي أن الأخ الأصغر دائمًا مارق، كاسر للتقاليد والأعراف، هادم للجدران السد، يختار تلك السكة التي هى "طريق الذي يروح فلا يرجع".

كانت الظلمة تحيط بالطرقات في القرية، لكن الصوت لا تعيقه الظلمة كما نعلم، فهو يخترق ستائرها، وينفذ بين جنباتها، توقف الساهي عندما أحس بتلك الخطوات تتبعه، التفت خلفه متطلعا، تبدى له شبح غير بعيد، توقف قليلا يحاول أن يتبينه، اقترب

الشبح بهدوء، سرت رجفة لا معنى لها في بدن الساهي، وبدأ الخدر يتبخر من جسده، لقد كان ذلك الشبح يبدو على هيئة شاتل الأرز.

الأمر يدعو إلى الحيرة في الحقيقة، فلو رفع صوته الآن لتجمع الناس ويمكنه أن يدَّعي أن شاتل الأرز كان يحاول الاعتداء عليه، وهكذا قد يكسب بعض الناس إلى صفه، لكنه يستطيع أيضا أن يقتله في صمت ولديه خنجره الذي لا يفارقه، وفي هذا الظلام لن يراه أحد، لم يسعفه الخدر الباقي في جسده بحسن التصرف، فآثر أن ينتظر ما يسفر عنه الموقف.

قال شاتل الأرز بصوت طبيعي تماما وكأنما لا شيء بينهما:

– ليلة طيبة يا أخي الأكبر، أين كنت في هذا الوقت من الليل؟

سار الساهي على نفس النغمة:

– والله كنت أتمشى، بلا هدف، وأنت؟

قال شاتل الأرز:

– أنا أيضا خرجت بلا هدف في الحقيقة، ولكن.. كأنه كان موعداً بيننا، أليس كذلك؟

تظاهر الساهي بابتسامة صفراء خبأتها الظلمة، فقد كانت بلا صوت، وكان يتساءل:

– خيراً، هل تريدني؟

ابتسم شاتل الأرز في الظلمة، ابتسامة تسمع ولا ترى:

– لا أستغني عنك، في الحقيقة كنت أحتاج أن أتحدث وأفضفض بحالي إلى أخ أكبر يسديني النصح ولا يجاملني.

ما هذا الكلام، بدأ ذهنه يصحو أكثر، الأمر لا زال بحاجة إلى بعض التفكير، هل يراجع شاتل الأرز نفسه؟ لا مفر من القبول ولو ظاهريا.

- تحدث بما شئت، فأنا أخوك الأكبر لا زلت.

سارا متجاورين، مضت لحظات صمت، ثم قال شاتل الأرز:

- كنت أفكر ماذا أفعل، في الحقيقة..

توقف للحظة تردد، حسمها الساهي:

- أنت تعرف ماذا يجب أن تفعل !!

رفع شاتل الأرز يده:

- لو تنتظر قليلاً، ستسمع رأيي.

عاد الساهي يقول:

- رأيك نعرفه جميعا!!

قال شاتل الأرز:

- ليس الأمر كما تظن، لقد كنت أفكر في الأيام القليلة الماضية فيما صرت إليه وصار إليه حالنا، وعندما ذهبت مع الفقير إلى الهيش لأساعده في إصلاح بعض الأرض ليقوم بزراعتها ويوفر طعام أبنائه منها، جعلت أفكر بشكل أفضل، ورأيت أن الأمر قد لا يتعدى خطأ في توزيع الأرض بيننا، عندي من الأرض الكثير، أعني أنني أعرف أنها أكثر مما أحتاج، وربما يحتاج غيري إليها، أنت مثلا يا حليم، أرضك صغيرة، صحيح لديك منحل، لكنه لا يكفي بالطبع وأولادك كثيرون، بينما أنا لا أولاد لي، فما الداعي لكل هذه الأرض، والتي أصبحت عبئًا على كاهلي بعد شتلي الأرز، وخاصة بعد أن تنكر الفقير لي رافضًا الاستمرار في إصلاح الأرض، حقيقة أن أولاده لا زالوا يحاولون، ولكن المشاكل ثارت بينهم بسبب هذا الأمر حتى أنني ندمت على

محاولتي هذه، وعرفت أن الأرض ربما تكون لعنة ونقمة كما أنها نعمة، فما الداعي للإكثار منها، يكفي ما يُقيِّم حياتك، أليس كذلك؟

قال الساهي في تردد:

- ربما، إلى أي شيء تريد أن تصل يا شاتل الأرز؟

قال شاتل الأرز ببطء وتؤدة:

- لذلك كله، ولأسباب أخرى لا مجال للحديث عنها الآن، وباختصار شديد، كنت أفكر في ترك بعضها.

كان الساهي يستمع بصبر، لم يفكر أبدًا أن شاتل الأرز سيصل إلى هذه النتيجة، فلما وصل إليها لم يستطع الساهي أن يمنع لعابه من أن يسيل ككلب جائع رأى لقمة طازجة، لكنه قال بحذر:

- ماذا تعني؟

- أعني أنني لو اضطررت إلى التخلي عن محصول الأرز، فلا مفر من التخلي عن جزء كبير من الأرض، ربما أبيع بعضها، ويكون ذلك عوضًا عن خسارتي في الأرز، أنت تعرف أنني لا أريد أن أغضب الوالد، رحمه الله، ولكني لن أجد مشتريا بسهولة في هذه الأيام، فمن يشترى في هذه القرية؟ الناس إما لا يملكون، أو يملكون أكثر مما ينبغي، وأنا من هؤلاء الذين يملكون أكثر مما ينبغي، فما الحل؟

كان الساهي لا يزال مأخوذًا، ولا يستطع أن يفهم إلامَ يرمي أصغر الأخوة:

- فَعَلامَ عزمت؟

قال شاتل الأرز:

- عزمت على أن أترك أرضي لمن يشاء زراعتها.

سكت قليلاً ليلقي إليه بما يريد وما يلف حوله طوال الوقت:

– وفي الحقيقة فكرت أنك أنت الأولى بأكبر نصيب في هذا.

أبتلع الساهي ريقه بصعوبة، وخرج صوته مختنقا:

– ماذا تقصد؟ هل ترشوني؟

واصطنع ضحكة صفراء.

تبادل شاتل الأرز معه الضحكة التي لا معنى لها، ثم قطعها فجأة ليقول:

– بل إنني أطلب مساعدتك، لكي لا تزيد خسارتي كثيراً، أليس كذلك؟

– وفيمَ تريدني أن أساعدك؟

قال شاتل الأرز بصوت عميق مليء بالغموض:

– فقط تتحمل معي هذه الأرض التي ناء بها كاهلي.

قال الساهي محاولا إخفاء فرحه:

– أتحمل معك ما تشاء، أنت أخي الأصغر وعلي حمايتك.

قال شاتل الأرز:

– فلو شئت تأخذ خمسين فدانًا من أرضي.

قال الساهي في دهشة:

– أتعنى ما تقول؟

– بالطبع، هل رأيت مني فيما سبق تخاذلاً في أي أمر؟

قال الساهي:

– لا والله، لكن هذا كثير بالفعل !!

قال شاتل الأرز:

- فغداً أشهد الجميع على ذلك

قال الساهي:

- لا، بل انتظر قليلاً. ويبدو أنك قد لجأت إلى العقل يا شاتل الأرز، وعلى الجميع أن يفعل مثلك، أنا أيضا كنت أفكر في الأيام الأخيرة في معنى ما قاله الوالد، وربما أنه لم يكن يعني تحريم الأرز، وإنما مجرد المفاضلة، ولكن الأمر لا يزال بحاجة إلى بحث كما تعلم.

ابتسم شاتل الأرز في قلبه، ولكنه تصنع الهم:

- فانظر متى تشاء ذلك، فقد قررت وانتهيت.

قال الساهي:

- فبعد أيام، تظهر حقيقة الفتوى، وفي الوقت نفسه، تهب الأرض لكل من أخوتك الثلاث الكبار.

وبخبث لم يسبق له أن جربه بهذا السفور، أظهر شاتل الأرز دهشة:

- ولماذا؟ لا يحتاج لا وارث العباءة ولا البدين أرضاً، أنت الذي تحتاج إلى ذلك !

قال الساهي بابتسامة أوسع خبرة في مجال الخبث:

- ولكنك ستعطيني نصيباً أكبر، أليس كذلك؟ لكن الأمر لا يخلو من استرضاء لأخويك الأكبرين، فهمت؟

هز شاتل الأرز رأسه:

- فهمت، عشرة فدادين لكل منهما، ألا يكفي هذا؟

قال الساهي:

- بالطبع يكفي.

قال شاتل الأرز

- ولك خمسون فدانًا لن تنقص سهمًا.

وكانا قد وصلا إلى بيت الساهي، أما شاتل الأرز فلا يزال أمامه طريق طويل بين البيوت الواقعة في غرب القرية.

وهكذا، وعلى عكس ما تأتي به الحواديت، اختار الأخ الأصغر طريق السلامة.

ساد الحزن الكثيرين وساد الفرح الكثيرين. فقد كان الأمر يبدو هدنة طيبة في القرية، لكن الطالع قال لشاتل الأرز:

- ألم أقل لك لا تهادن؟

قال شاتل الأرز:

- لا مفر من المهادنة.

قال الطالع:

- ألم أقل لك أنك ستفقد الكثير بالمهادنة؟

قال شاتل الأرز:

- هكذا أفقد أقل، صدقني.

وقالت الوراقة:

- كيف نتخلى عن الحلم؟

كانت الوراقة لا تزال تحلم، وظلت تحلم حتى النهاية.

الوراقـــة

همست زهور البردي للوراقة:

- لماذا لا تصنعين الورق من سيقاني؟

لم تعرف الوراقة كيف تصنع الورق.

سارت الوراقة في الحقول وعلى شط الترعة تسأل الطيور والحيوانات عمن يعرف، تسأل الزهور والفراشات، قالت خنفساء الحقول للوراقة:

- إنني أحب جاحظ العينين، وأظن أنه يعرف كل شيء في هذا العالم.

سألت الوراقة:

- أين عمي الآن؟

تمايلت أعواد القمح الخضراء، وهمست للريح:

- يذهب جاحظ العينين إلى الزاوية في المساء ليسمع الراوي.

قالت الوراقة:

- لكن العصر لم ينقضِ بعد.

لاحت الشمس خلف سحابة شتاء بيضاء، وغمزت بعينيها نحو بستان الزيتون.

قالت الوراقة:

- نعم، قد أجده هناك!

طلعت الوراقة على بستان الزيتون، رأت العم في جلسته تحت شجرة زيتون شابة يجلس أمامه البنا، يضع البنا الجمر في الجورة ويصنع الشاي لنفسه ولأبيه بعد عودته من عمله أيا كان ما يعمل، ثم يذهبان سويا إلى البيت.

طلعت الوراقة على العم وابن العم جالسين يشربان الشاى ويستدفئان تحت الزيتونة، جلست الوراقة وتناولت كوب الشاى الذي قدمه لها البنا.

سألت الوراقة:

- ياعمي، كنت أسأل عمن يعرف كيف يصنع الورق؟

قال جاحظ العينين:

- لاأعرف، ولكن ربما كان الحكيم يعرف.

وقال البنا:

- عندما أبني أضع اللبنات فوق بعضها، كل طبقة باتجاه مختلف، وربما لا يكون الورق يختلف عن ذلك كثيرا.

قالت الوراقة:

- ربما فعلا، ولكن الطمي يتماسك سويا، أما سيقان البردي فهى ملساء، فما الذي يعطيها التماسك؟

قال البنا:

- عندما أريد صنع اللبنات، فإننى أترك الطمي مبللاً بالماء فترة ليتعطن، هذا يعطيه فرصة التماسك أفضل، ربما يصلح ذلك أيضاً مع سيقان البردي.

قالت الوراقة:

- ربما فعلا، ولكن اللبنات صلبة، أما سيقان البردي فهى مليئة بالمياه، فما الذي سيعطيها شكل الصفحة المنتظمة؟

فكر البنا:

- عندما أضرب الطوب فإنني أضغط الطين ليتخلص من بعض مائه، ربما لا يكون البردي يختلف عن ذلك كثيراً.

قالت الوراقة:

- ربما فعلا، ولكن الطين قابل للتشكيل، أما سيقان البردي فلا، فما الذي سيعطيها شكل الصفحة المنتظمة؟

قال البنا:

- ربما عليك أن تفكري في هذا وحدك قليلا.

خجلت الوراقة:

- ربما فعلا.

قضت الوراقة زمناً تتعلم، وزمنا آخر تصنع الورق، حتى أصبح لديها صف من الورق، فكرت: علىَّ الآن أن أذهب إلى السوق مع أخواتى.

جلست الوراقة في السوق تضع أمامها صفا من الأوراق صنعتها بيديها، لكن النهار أوشك على الانقضاء وما باعت ورقة واحدة، بدأت السوق تخلو من روادها، وعند الغروب انفضت ولم يبق إلا الوراقة جالسة ما باعت ورقة واحدة.

فى غبشة ما بعد الغروب رأت ظلاً طويلاً يتقدم باتِّجاهها، رفعت رأسها، وهناك وقف الحكيم بثوبه الأسود البالي، قال الحكيم:

- هل تبيعين أدوات المعرفة؟

قالت الوراقة:

- إنما هى مجرد أدوات، أما المعرفة فبأيدي الحكماء.

قال الحكيم:

- بكم تبيعينني هذه الأوراق؟

قالت الوراقة

- بأي شيء تشترى به.

قال الحكيم:

- لكنى لا أملك ما تشتري به الأشياء.

قالت الوراقة:

- لا أطلب شيئًا محددًا، أعطني مما أعطاك الله.

قال الحكيم:

- لا أملك غير الكلمات.

قالت الوراقة:

- أعطني مما أعطاك الله.

قال الحكيم:

- بيت الظالم يخرب، حتى لو بعد عام.

قالت الوراقة:

- بعتك بهذا.

حمل الحكيم الأوراق، وقامت الوراقة عائدة إلى الدار.

كانت السوق قد خلت من روادها، نظرت الوراقة إلى الأفق والقرية البعيدة، وتذكرت الطريق الخالية الطويلة، والطاحونة المسكونة تقطعه في الظلام، قالت في نفسها: عندما أعبر الهيش، أختصر الطريق.

يختبئ الغادر في الهيش، كانت الوراقة جميلة وفتية، قال الغادر: تلك المرأة أحلى لي الآن من أية امرأة أخرى.

عندما قصدت الهيش، ابتسم الغادر لنفسه: جاءت برجليها.

وعندما اقتربت منه مد يديه إليها.

قالت:

– من أنت يا ذا الآتي من رحم الليل؟ كيف تضع يدك عليّ وما رأيتك من قبل، ولم تكن ابن عم لي؟

قال الغادر:

– إنما أنا ابن عم لك ولكنك لا تعرفين من أنا.

قالت الوراقة:

– دعني، لأعود إلى داري.

قال الغادر:

– ما عادت لك دار في القرية، فلتكن دارك هنا معي، أريدك وأرغب في الدخول إلى رحمك، أراك جميلة وفتية، ابقي هنا حيث أبقى وتعالي نستمتع معًا بلحظات الليل الطويل.

قالت الوراقة فزعة:

– لكني لا أريدك أيها الغريب، فدعني أرجع إلى داري.

قال الغادر:

– بل أدخل إلى رحمك كما أشاء، ليس هناك من يمنعني منك.

قالت الوراقة:

- صرختي ستـأتي بأبي واعمامي وآبنا ـ عمومتي، سيثالون منك ويمنعونك من القدر بي.

ضحك القادر:

- هذا حلم بعيد، انظري، أبواب القرية قد أغلقها الظلام وما عدت تستطيعين الدخول، ليل القرية أنتِ لا تعرفينه، نباح كلاب القرية يعلو وصرخاتك تضيع هباء، تعالي إليّ، فما عاد بي صبر عليك، أرغب في الدخول إلى رحمك، وأرغب أن أغرس بذرتي بتربتك، ولتنبتي لي ولدا يكون لي ساعداً ورفيقًا في ظلام أيامي.

قالت الوراقة:

- لن تتمكن من الغدر بي.

شقت صرخة الوراقة ليل القرية الساكن، قال جاحظ العينين لأبنائه:

- اليوم يقتال القادر الخير.

وقال الفارع:

- هل أطلع إلى أعناق النخيل لأستطلع الأفق المظلم؟

وقال وارث العباءة:

- من ذا الذي يصرخ في هدأة الليل؟

وقال البدين:

- ذاك الصوت آتٍ من الهيش، ما لنا به من شيء.

وقال الساهي الذي تحته دواهي:

- من ذا الذي يسهر الليل في غير صلاة؟

وقال أبو البنات:

- ذاك صوت الوراقة، أين هى؟

وكانت الربابة تئن في يد أبا علىً، وهو يروي.

قال له دياب :

ما أصل النهاردة حمولي تقال

على إيدي مجرد زناتى

النهاردة إللى عليه الرمل قال :

رايح أغدرك يازناتي

رايح أغدرك يازناتي"[٢].

وقال البنا:

- الليلة لا يمكننى الرقص.

يوم مضى، وأيام أخرى وما عادت الوراقة إلى دارها، وما عرف أحد أين هى، وما استطاعت أن تهرب من ظلمة الهيش لأشهر كثيرة.

جذب الغادر الوراقة إلى عمق الهيش حيث المستنقع الكبير، وفي وسط المستنقع على جزيرة صغيرة وسط المياه الراكدة لملم بعض سيقان السمار النابت في الهيش من قمتها وربطها، وأفرغ ما بينها من السيقان ومهد الأرض، وقال للوراقة: تعالي هنا، هذا بيتي.

لم تتحرك الوراقة، فأمسكها وشدها إلى داخل البيت.

وبعد أيام استطاع أن يسرق بعض الفرش لأرضية البيت وفرشه، وقال للوراقة:

---

(٢) السيرة الهلالية، مقتل الزناتى خليفة، الشريط الثانى، الشاعر جابر أبو حسين.

- ها هو غداً كاحسن البيوت في القرية

لم تستطع الوراقة عبور الهيش، فقد انقطع الطريق، واختفى الدليل، وروعها الغادر، وأمرضها البلل وأقعدتها الرطوبة، وأصابها اليأس إلى حين.

في كل صباح يأتي الغادر من ليلة طويلة، لأن ليله كان للصحو، ونهاره للنوم، بعد أن يخلد إلى النوم عند ظهور البارقة الأولى لنور اليوم الجديد، تخرج الوراقة تستطلع الطريق، تخطو بين الأعشاب والوحل، تنظر إلى بيوت القرية من بين الأعشاب وتبكي ما أصابها، حتى رآها الغادر ذات يوم فخشي أن تجرؤ، وعندما ألمَّ الظلام مرة أخرى قال الغادر.

- هيا، ستخرجين معي!

قالت الوراقة:

- لا أخرج معك، لا صالح لي بما تفعل.

قال الغادر:

- بل تأتين، فلن نعود هنا مرة أخرى.

قالت الوراقة:

- وأين تذهب بي؟

قال الغادر:

- أعددت لك بيتًا أفضل!

قالت الوراقة:

- كيف تسكن البيوت، أنت لا تسكن إلا الخرائب، الديار لا تعرفها، ففي الديار الأمان، وكيف تعرف الأمان؟

ضحك الغادر

- نعم، ولهذا سنسكن خرابة أخرى.

عندما دخل الغادر والوراقة إلى التيه، وضع غمامة على عينيها، وسار بها في دهاليز كثيرة، وفي النهاية سمح لها بالرؤية، لكن لم يكن هناك رؤية، فقد كان الظلام يلف المكان.

لأيام لم تعرف الوراقة عددها ظلت حبيسة التيه، لا يمكنها الخروج، كل يوم يعود الغادر يبحث عنها في الدهاليز حتى يجدها تحت جدار في الظلام منهارة تبكي.

حتى كان يوم حانت لها أشعة خافتة بعيدة فاتجهت إليها، وفى لحظات كانت خارج العتمة، كان الظلام في بدايته، ولا يوجد سوى ضوء النجوم الخافت وبعض بصيص من ضوء المصابيح يأتي من القرية، الظلام يلف الهيش والقرية والكوم، استنشقت الهواء النقي، وسارت نحو القرية.

كانت تحمل طفلاً على ذراعها.

خرجت من التيه في ظلام ليلة لم يطلع قمرها بعد، قالت الوراقة وهى تنفض عنها بقايا القش والتراب:

- أريد أن أغسل قدمي، لأن قدمىَّ متسختان.

وقالت الوراقة:

- أريد أن أغتسل في ماء النهر فأطهر.

خطت الوراقة إلى دار أبيها تحمل طفلها، خرج الأب في الظلام من نومه ونظر، وقال:

- ما جاء بك؟

قالت

- إنما جئت إلى داري

قال أبو البنات:

- مـا عـادت هـذه دارك، تحـملين عـارك وتدنسين الأرض الطاهرة، عـودي من حيث أتيت.

قالت الوراقة:

- إنما ظُلِمت ياأبى وغُدِرَ بي، لم أفعل ما أستحق به العار والدنس.

قال أبو البنات:

- هل تحمل المرأة من الريح كالزهور؟ في الأمر خيانة كبيرة.

قالت الوراقة:

- إنما هو ظلم وغدر، وأنتم تنظرون

قال أبو البنات:

- ما انتظرت من بناتى يومًا إلا كل خير، أتين لي بالخير والمقدرة، امتلأت داري زبداً وعسلاً، ولم تعصَنى إحداهن يومًا، إلاَّ أنت، كنت تصنعين الورق من سيقان النبات النابت على ضفاف الترعة، وعندما تجلسين لبيعه لا ترجعين بمال، وإنما ترجعين بكلمات طيبة، كيف لنا أن نأكل ونلبس الكلمات الطيبة؟ كنت أردد لنفسي دائمًا ما قاله لى الوالد يومًا أن البنت في أولها شماتة وفى آخرها حسد، ولكن ها أنت كنت شماتة في الأول وفي الآخر.

قالت الوراقة:

- كانت الغازلة تغزل وكنت أغزل، ولكني كنت أغزل الكلمات، وكانت النسَّاجة تنسج وكنت أنسج، ولكني كنت أنسج ما غزلت بنفسي، وكانت الحائكة تقص وتحيك، وكنت أفعل ذلك مع غزلي ونسجي، لكني ما كنت أبيع، كنت أعمل بمقدار ما يعملن،

لكن لم يكن هناك من يشتري عملي.

قال أبو البنات:

- جلبت لي العار.

قالت الوراقة:

- إنما هو ظلم وغدر وأنتم تنظرون.

قال أبو البنات:

- الظلم مدفوع والغدر مرفوع، والعار هو الباقي.

قالت الوراقة:

- إنما هو ظلم وغدر وأنتم تنظرون.

قال أبو البنات:

- الربوة التي شهدت ظلمك والغدر بك، تشهد غسل عارك، احملي حملك، وانطلقي إليها في هذا الظلام، حتى ألحق بك.

قالت الوراقة:

- ما أسهل أن تنظروا الظلم والغدر فلا تدفعونه، وما أسهل أن تغسلوا العار، أعلم أنك سوف تدفنني مع طفلي في تربة الربوة، لكن هذا لن يضيرني، لأن بدني سيتحول إلى الأشجار والزهور فيعطيها.

خرجت الوراقة من بيت أبيها، لحظات مرت بها لا تعرف أين تتوجه، فكرت في جاحظ العينين، عمها، وعندما كانت تسير كانت ترى جدران الدور من حولها تنظر إليها، سرت رعدة الخوف في بدنها وأسرعت خطاها.

وعندما وصلت إلى ساحة القرية بزغ القمر مكشراً عن أنيابه، قالت الوراقة لستائر الليل:

- لماذا الخيانة؟

برز شبح من خلف كل دار يتجه نحوها. مدت ذراعها لتتشبث بأستار الظلام، واحتضنت الطفل بذراعها الأخرى، وأسرعت الخطى

وعندما رأت شجرة الكافور العالية بأوراقها السوداء الكثيفة، بأوراقها التى صارت أشد سواداً من الليل نفسه، تقف أمام دار جاحظ العينين، نادتها: هل ترين ما بي؟

اهتزت وريقات الكافور هزة خفيفة مع نسمات شحيحة لليلة صيف حارة، قالت الكافورة العجوز للوراقة: فلتختبئي في ظلامي.

عندما التفتت الوراقة بظلمة الكافورة أطلت الأشباح حائرة، ثم عادت تختفى خلف الجدران، دفعت الوراقة باب السور ودخلت، خرج البنا من الدار متسائلاً:

- من هناك؟

وقفت الوراقة ترتعش، وعندما رأت ابن عمها عرفت أنها تحبه، وأن الظلمة التي اجتازتها كانت كلها في الطريق إليه.

وقال ابن العم للوراقة:

- ماذا حدث يا أختي لتخرجي إلينا في هذا الليل المريب؟ وما هذا الذي تحملين؟

طلع جاحظ العينين من الغرفة الأخرى، وخرج الآخرون جميعًا إلى صحن الدار، وجعلوا يتأملون الوراقة الواقفة في مكانها لا تزال لدى الباب تحمل طفلها، وقد أصفّرت بشرتها هلعًا وارتعش بدنها، عيناها تنتقلان بين وجه البنا ووجوههم، ولا كلمة.

وكأنما يرى لأول مرة، قال البنا:

- ما هذا الذي تحملين ياوراقة؟

قال جاحظ العينين بغضب مكتوم:

– تسألون وكأنكم لا تعرفون.

تعلقت عيناها بشفتيه، وابتلعت ريقها، وتهاوت، أسرع البنا يأخذ طفلها، وأسرع عمها يسندها، ويدخلها إلى الدار.

وقال جاحظ العينين:

– جاءت الوراقة إلى دارنا لأنها تحتاج المجيء الآن، وما علينا سوى أن نفتح صدورنا وتحميها أيًا كان ما أتى بها.

انتبه الجميع، وبدأوا يتحركون حركة سريعة، بسرعة كانوا يغلقون باب الدار، ويهيئون للوراقة مكانًا تريح فيه، وضعها عمها على الفرش، وأتى لها البنا بقدح ماء، وضع جاحظ العينين يده مبتلة على جبينها الملتهب، تابعت تنظر إلى طفلها يحمله البنا، قال لها:

– لا تخشي شيئا يا وراقة، طفلك أحمله، وأكون أمينًا عليه حتى تقدرين على حمله.

هدأت الوراقة واستكانت، وأغمضت عينيها.

وقال جاحظ العينين لأبنائه:

– لتبق ابنة عمكم في دارنا ما شاء لها البقاء، ليس لأحدكم أن يسألها عن شيء ما كان، وليس لأحدكم أن يتحدث عن وجودها في بيتنا إلا إذا شاءت ذلك بنفسها، لتبق حتى تريد الرحيل، مهما طال الوقت فهو كفيل بشفاء نفسها، فإذا رغبت في يوم ما بالحديث فلتتحدث.

كانت الأيام تمضي والوراقة جالسة في مكانها ترضع طفلها، كانت أحيانًا تبكى بصمت، وأحيانًا تنظر إلى الأفق من خلف النباتات الكثيفة في سور البيت الخلفي، وعندما كانت الليالى مقمرة كانت تزداد أحزانها، وبمرور الوقت كانت دموعها قد

نضبت، وبدأت عيناها تستعيدان البريق، وعندما كان طفلها يخطو ويلفظ أولى الكلمات، كانت البسمة الحزينة تتسلل إلى وجهها، حتى كانت ليلة - والبرد قد دخل الدور - جلست الوراقة بين عمها وأولاده في صمتها الذي عهدوه منذ قدومها. تحلقوا حول النار في صحن الدار، وجعل البنا يدفن ثمار البطاطا في الجمر المتوقد، كان السكون سائداً حتى أن الوراقة عندما تكلمت كانت كلماتها شديدة الوضوح، رغم الصوت الخافت، قالت الوراقة:

- عندما دخلت إلى الهيش لم أكن أعرف أنه هكذا سيكون ما ألاقي، لكنني اليوم وقد هربت من التيه لا أريد العودة، وقد يكون الأفضل لي أن أعود فما عاد لي من مصير آخر، لكنني لا أرغب في حياة مع الغادر ساكن الهيش، طفلي سأحمله أينما أذهب، ولن أعود إلى التيه.

قال البنا:

- طفلك ليس لك يا وراقة، هو ابن الإثم وابن الآثم.

قالت الوراقة:

- لا أهتم من أبوه، لكنه طفلي، ولن أدعه، فكرت في الأمر لأيام عديدة، وأظن أنه من الأفضل لي أن أرحل، عندما يبزغ الضياء أحمل طفلي وأرحل إلى حيث أجد الأمان.

قال جاحظ العينين:

- كلنا كنا نعرف أن الوراقة اختفت، وكلنا سمعنا صراخها في الليلة المشئومة، كلنا عرفنا، لكن لم يفعل أي منا شيئا، عندما كنا ننظر كلٍ في وجه الآخر، لم تكن العيون تعرف اللقاء، لأن السؤال كان هناك، وكذلك الإجابة، لكننا لم نكن نريد أن نقول، أن نعترف بأننا نعرف، وأننا هكذا جبناء، وعندما تأتي الوراقة اليوم لم يعد هناك مفر من الاعتراف، ولم يبق شيء نفعله، فقد فعلت هي كل ما يجب عندما هربت من التيه.

سكت جاحظ العينين، وساد الصمت لحظات، ونظر إلى أولاده فرأى في عيونهم الحب والصفح، اطمأن قلبه، وقال مرة أخرى:

- لعل أخوتي الآن ينظرون إلى اجتماعهم ويعرفون ما يجب عليهم، لكن، وحتى يحدث ذلك يا وراقة، تكونين في داري، في حمايتي.

تعلقت نظرات الأبناء بشفتي الأب وهو يقول ما قال، ونظرت الوراقة ولفها السكون، ثم تطلعت إلى البنا.

قال البنا.

- سأبني لك بناء تبيتين فيه الليل، وتضعين فيه جسدك المتعب، وتحتضنين فيه طفلك الذي اخترته، وتصنعين فيه أوراقك لتكسبي من بيعها، حتى يشتد عود الصغير ويساعدك.

قالت الوراقة.

- ليس لي أرض لتبني لي داراً عليها، ليس لي مكان في هذه البلدة.

قال البنا:

- سأزيل من نباتات الهيش ما يصلح مكاناً لبيتك، الهيش ملك للجميع.

بكت الوراقة:

- لن أعود إلى الهيش مرة أخرى.

قال جاحظ العينين:

- فنحن جميعًا نخرج إلى الهيش، ونزيل الحشائش الشيطانية، وبأيدينا في أسابيع قليلة يصبح الهيش أرضًا صالحة.

قال الابن الثاني:

- بل ونزرعه بالزيتون.

قال البنا

- ويصبح لكل من لا أرض له أرض بالهيش.

قالت الوراقة وقد أخذها الحماس مثلهم:

- وأحفر بركة أزرع بها نباتات البردي.

وقال النجار ضاحكًا:

- وتربين فيها البط أيضًا.

توقفت الوراقة، وعادت مسحة الحزن إلى وجهها:

- يبدو هذا كحلم جميل! فهل تفعل ذلك فعلا؟

قال البنا:

- أفعل ياوراقة، قلت أفعل ولابد أن أفعل.

نظرت الوراقة في الأرض، وقالت في همس:

- ليتكم فعلتم ذلك من زمن.

قال جاحظ العينين وهو يقرب جفنيه يغطى بعض عينيه الكبيرتين، وينظر من بينهما، ربما إلى الأزمنة الأخرى التى لم يرها بعد:

- كل شيء بأوان.

انطلق جاحظ العينين وأبناؤه والوراقة إلى الهيش، في الظلام لم يكن هناك من ينظر، أو على الأقل يبدو الأمر كذلك.

قال جاحظ العينين للبنا:

– كيف تنظر الآن إلى الوراقة؟ أعرف أنك كنت دائماً تنظر إليها، لكنك تبني الآن جداراً لها، هل هذا الجدار أيضاً بينكما؟

قال البنا:

– أنظر إلى الوراقة، كانت يوماً نسمة في حياتي، لكنها الآن بعيدة، تبعد كل يوم بقدر ما يكبر طفلها، لم أعد قادراً على الحلم بها، لكنها في حمايتي، أحميها بقدر ما أبعد عنها، أبني لها الدار الذي تسكنه مع طفلها، وأسهر في حراستها، لكنها لم تعد لي.

وقال جاحظ العينين:

– الوراقة ابنة عمك، لكنها لم تعد لأحد، هي الآن لأبنها فقط، كلما نظرنا إلى هذا الطفل ذكرنا والده، لكن هذا الوالد الغادر ليس له في هذا الطفل الذي لم يذنب بشيء، فقط تلك الجدران يجب هدمها.

قال البنا:

– بل يجب بناءها، لحماية الوراقة وولدها.

كان البنا يريح ذراعه فوق ركبتيه، ينظر إلى الأفق الأخضر الذي بدا خلف الهيش، عيناه مفتوحتان للضوء الكليل الباقي من اليوم، وظهره مستند إلى جذع الشجرة التي جلس تحتها، ساقاه مثنيتان إلى صدره، وفي الضوء الغارب كان الجواد الأسود يطارد فلول الشمس الحمراء.

الغـــادر

نام الريِّس في جلسته ولم يعد ينتظر، وعبس المسلى ولم يعد يبتسم، وسكت ابن الريس وأصبح أكثر كمونًا، وتساءل الحكاء وهو ينظر في الاتجاهات البعيدة:

– لكن من هذا الغادر؟ من أين أتى؟

أجاب الحكيم قائلاً:

ولد الغادر في الغفلة.

لم تلده والدة، ولم ينجبه أب.

جاء من صلب الأحلام السوداء، وكوابيس الزمن الكذاب.

لكن الكل تبناه، أرضعته النساء وهدهده الرجال، حتى غافلهم جميعا، وسرق الخير، وهرب إلى الهيش، ومن الهيش إلى الكوم الشمالى حيث التيه تنقل في أوقات عدة. من حين لآخر يأتي الغادر للبلدة، يدخل بين سوق الهيش الخضراء الكاذبة، ينتظر اللحظة، يتسلل بين بيوت القرية في الليل، يجوس في الطرقات الباردة المظلمة، يسرق طيرًا أو أرنبا، ويعود إلى الجبل بحمله.

لم يكن الغادر وحيدًا تمامًا، كان يجد دائمًا من يريده، ولذلك عندما خطف الوراقة كان يعرف أنه لن يكون هناك من يتبعه للبحث عنها، وأنه عندما يرغب سوف يجد من يمنع أخذها عنه، لم يظن أنه في يوم سوف تتمكن الوراقة من الهرب من التيه، فالدهاليز تتقاطع، وتتفرع، ويصعب الخروج منها لمن لم يألفها أمدًا طويلاً مثله، كما أن الظلام الدامس في المكان كان عائقًا شديدًا، والخوف ينمو في الظلام، وكان حريصًا

أن يخرج كل يوم في اتجاه يخالف اتجاهه السابق لتظل الوراقة جاهلة أبدا بالطريق، كان يخرج في الظلمة حافيًا حتى لا يصدر صوتًا ينبهها إلى وجهته، ويلف في الدهاليز عدة مرات حتى يصيبها الدوار ولا تتمكن من متابعته. متى فقد حذره؟ ربما بعد أن أنجبت الوراقة ابنه، خالجه إحساس بالاطمئنان إلى أنها بعد اليوم لن تحاول الهروب، فقد كان يظن أنها تخاف العودة إلى أهلها والطفل على ذراعها، لكن الوراقة خالفت كل توقعاته.

ولما لم يجدها في التيه في نهاية تلك الليلة خرج غاضبًا، لم يعبأ بالضوء الذي بدا عند الأفق خافتا، انطلق إلى دار البدين وطرق الباب طرقًا شديدًا.

استيقظ أهل الدار جميعا، قال البدين:

- لابد أن أمرًا شديدًا قد وقع، فادخلوا إلى حجراتكم وانتظروا فسأنظر الأمر بنفسي.

فتح البدين فرجة من الباب فرأى الغادر هائجًا كالثور، خرج إليه في غضب:

- كيف تجرؤ على المجئ إلى داري؟

كتم الغادر ثورته وقال بصوت مكتوم:

- هربت الوراقة من التيه تحمل طفلي.

قال البدين وكأنما لم يسمع:

- كيف تجرؤ على المجئ إلى داري أيًا كانت الأسباب؟ كان عليك الانتظار بالدار الأخرى حتى آتيك.

بدا الغادر متوسلاً وضعيفًا:

- طفلي، الوراقة هربت تحمل طفلي.

قال البدين بحزم:

– اذهب إلى الدار الأخرى حتى آتيك.

انتبه الغادر من ضعفه، ما كان له أن يضعف أبدا، فليس له الضعف، قال الغادر:

– طفلي، القرية كلها أمام طفلي.

عاد البدين يقول:

– اذهب إلى الدار الأخرى حتى آتيك.

– الآن!!

– لن أتأخر عليك، دعني أبحث حتى أعرف لك مكانها، وسآتيك.

انطلق الغادر إلى الدار الأخرى، (وهي التي أخذها البدين من اللئيم) ينتظر هناك، بينما عاد البدين إلى داخل داره، تجمع أهله ينظرون ما الأمر فنهرهم ليعود كل إلى ما كان فيه، من نوم أو غيره.

ظل الغادر حبيس الدار الصغيرة ينتقل بين الحجرات كحيوان حبيس، لم يتمكن ذلك النهار من النوم، حتى لاحت فلول اليوم تتراجع، وبين غبشة المغرب، وظلمة الليل سمع الخطوات تقترب، قفز يفتح الباب، كان هناك البدين يتبعه الساهي، خار الغادر كثور غاضب، وقال بصوت مبحوح:

– أين هي؟

قال البدين:

– من تريد؟ الوراقة أم الطفل؟

دخل الغادر إلى ظلمة الدار، وجلس حيث كان قد وضع أمامه الحوزة والفحم متقدًا، قال وهو يشد نفسًا عميقًا:

– أريدهما كليهما.

قال الساهي:

– لك طفلك، أما الوراقة فليست لك.

قال الغادر:

– كلاهما.

قال البدين:

– أنت تعرف أنها ليست زوجة لك، إنما هى حرة حيث تذهب!

قال الغادر:

– حرة؟ ليس لها عندكم سوى القتل، ولِمَ لا تعطونها أى بدلاً من قتلها؟

قال البدين:

– أما كانت معك؟

قال الغادر بصوت خافت مبحوح وكأنما يحدث نفسه:

– كانت معي، لا أعرف كيف فضّلت الموت على أن تبقى حيث وضعتها.

قال ذلك وكأنه يسأل نفسه، ثم التفت لهما:

– الوراقة زوجتى، المسألة ليست ورقة زواج وأنتما تعلمان هذا.

قال الساهى:

– ولا هذه، أنت تعرف أنك لم تعقد عليها، ولم يشهد زواجكما مخلوق!!

ضحك الغادر ساخرًا:

– حقًا؟ لم يشهد زواجنا أحد؟ كل القرية شاهدة، كلكم تعرفون، كلكم باركتم هذا الأمر، بصمتكم على الأقل، فهى زوجتي، وابنها إبني، وأريدهما معا.

قال البدين:

– على كل حال لم نجدها، لا هى ولا أبنك.

قام الغادر واقفًا:

– أتسخران بى؟

قال البدين:

– اجلس ولا تنفعل، هى موجودة على كل حال، غير أننا لم نعرف مكانها بعد، إلا إن كان أبوها قد دفنها مع إبنها.

قال الغادر:

– لا أظن، وإلا لما كان يدور في القرية وكأنه يبحث عن شيء ما وهو في هذه الحالة من القلق.

قال البدين مبديًا الغضب:

– إذن خرجت، وطفت بالقرية أيضاً، ألم أقل لك...

قاطعه:

– لست أحد أخوتك الذين تصدر إليهم الأوامر، ولا تخيل على طرقكم في تأليف القلوب حولكم، فالعب غيرها!!

قال البدين:

– هى موجودة بالقرية، ولكن لم نعرف مكانها بعد، سنجدها على أي حال، ولكن في الوقت هذا عليك أن تنهي أمر شاتل الأرز، فهو يريد إصلاح أرض الهيش وزراعتها.

– الهيش؟ لماذا؟ ألا يكفيه ما لديه من الأرض؟

– بل يفعل ذلك للفقير وعياله!

ضحك الغادر:

– الفقير؟ وكيف له أن يزرع وهو لم يفعل من قبل؟

قال البدين:

– المهم الهيش!

قال الغادر متوجهًا للحليم:

– لماذا لم تفعل ذلك أنت؟ ألا تريد أرضًا أكبر من أرضك؟

قال الساهي ببطء متجهًا للبدين:

– لماذا شاتل الأرز؟ لم يفعل ما يستحق به القتل؟

بهت البدين:

– أنسيت كل ما كان؟

قال الساهي ببرود:

– لم أنس، أنت الذي تنسى!!

قال البدين غاضبًا:

– خالف تعرف، هذا كل شيء بالنسبة لك.

قال الغادر:

– ولِمَ لا تقتلون جاحظ العينين، فهو الذي يقف خلفه؟

قال البدين:

– ماذا تعني؟

والتفت إلى الساهي رافعًا صوته:

– هذا ما وصلنا إليه، لماذا يجب أن تفكر فقط في ما تريد؟

وقف الساهي غاضبًا:

– بل أنت الذي لا تفكر إلا في مصالحك!!

– اخفض صوتك، أتريد أن يسمع الجميع؟

– أى جميع، هذه الديار ليس بها أحد، أنسيت؟

– بل أنت الذي تنسى، الطالع لم يترك داره!!

بهت الساهي:

– الطالع؟ كيف؟ ألم تقل أنك ستجعله يتركها؟

قال البدين:

– لم يقبل بأي شيء، الطالع هنا حتى الآن.

وضع الغادر الجوزة على الأرض وقام واقفًا وهو يتثاءب. قال البدين:

– أين تذهب؟

قال الغادر:

– أذهب إلى حيث أشاء، عندما تجدان الوراقة ضعا لي العلامة، لن أفعل شيئا حتى أجد الوراقة والولد.

عندما رأى الطالع الغادر يسير سافرًا في طرقات القرية عرف أنه قد حان الأوان.

سار الطالع في كل مكان، كان يطرق الأبواب ويسأل:

- أين الوراقة؟

وكما كان الأطفال يسيرون خلفه كل يومٍ فيلقى إليهم بالتمر الطايب من فوق النخيل، ساروا خلفه اليوم يسألون:

- أين الوراقة؟

ولكن لم يكن هناك من يجيب.

وفى النهاية صعد الطالع فوق قمة النخلة العالية الواقعة في مدخل الجبانة، وراح ينظر في كل الاتجاهات، لكن الوراقة لم تكن هناك في أيةٍ ناحية.

الكافورة قد تخفي الشر كما أخفت الخير من قبل، وقد تحتضن الغادر في ظلامها كما احتضنت الوراقة من قبل، ولذلك عندما تسلل الغادر في هدأة الليل إلى دار جاحظ العينين لم يره أحد، وكان الظلام ساترًا.

من نافذة الغرفة الخلفية تسلل، وهناك رأى شبحين نائمين، شبح طفل وشبح امرأة، قال الغادر: من أين المرأة والطفل لهذه الدار؟ هى دار رجال، لم يكن بها امرأة يوما، فمن أين يأتى الطفل؟

قال الغادر: هذه الوراقة وهذا طفلي.

فى صمت وضع الغادر يديه حول الطفل، حمله في سكون وهو نائم لا ينبس، وعندما حمل الغادر طفله، فتحت الوراقة عينيها، ومدت ذراعها تتحسس الطفل كما تفعل حين تقلق كل ليلة، لم تجده، وأحست بحركة في الغرفة، قالت بصوت خافت:

- من هذا الذي يحمل طفلي في الليل؟

لم يرد الغادر، وإنما أتجه نحو النافذة، قفزت الوراقة إليه وأمسكت بجلبابه:

- دع طفلي.

قال الغادر:

– تريدين الطفل تعالي معه!!

قالت الوراقة:

– لا آتي، لا أنا ولا طفلي، دعه لي.

قال الغادر:

– بل هو طفلي، لا أدعه أبدا.

قالت الوراقة:

– لو أخذته سآتي بأعمامي والقرية كلها إلى حيث تخفيه، وسوف يكون الأمر عسيراً.

ضحك الغادر ساخراً:

– لن يأتى أحد، أما زلت تأملين في أن يغيثك أحد منهم؟ لِمَ لا تذكرين يوم صرختك، يوم لم يتحرك أحد بحثًا عنك؟

قالت الوراقة:

– سأقتلك، وسآخذه!

قال الغادر:

– عليك أن تحاولي، وعلي أن أحاول ما أريد.

دفعها بعيداً عنه، وغادر المكان.

فى الصباح كانت الوراقة جالسة وقد كشفت شعرها وحلته، جاء جاحظ العينين وأولاده، قال لها: أين الطفل ياوراقة؟

لكن الوراقة عادت إلى الصمت.

قامت الوراقة تريد الباب، قال البنا:

– إلى أين يا وراقة؟

خطت إلى الباب، صاح البنا:

– لا لن تخرجي، لا نريد لأحد أن يراك.

قال جاحظ العينين:

– دعها تخرج، الكل يعرف أنها هنا، الكل يعرف، حتى أنهم أخذوا طفلها، دعها تخرج ولنر إلى أين تتجه.

خرجت الوراقة في الشمس الصاحية والنور يملأ الدنيا، كل من رآها وقف، فقط الفقير جرى نحو دار أبى البنات ليخبره، شاتل الأرز كان متجهًا إلى حقله، فوقف، البدين كان متجهًا إلى حقله، فوقف، الساهي كان متجهًا إلى حقله، فوقف، كل من رآها توقف.

قال الساهي للبدين هامسًا: ها هى تخرج بكل جرأة.

قال البدين: فقدت ولدها.

قال الساهي: فماذا نفعل؟

قال البدين: دعها، ماذا يمكنها أن تفعل؟

قال الساهي:

– ألم أقل لك دائمًا أنك لا تقّدر الأمور؟

قال البدين:

– بل أقدرها تمامًا، انتظر فسوف يكون هناك من يتولى أمرها، لا تقلق، والأفضل أن نتجه إلى حقولنا، حتى لا نشهد شيئًا.

تجمعت القرية كلها تسير حول الوراقة، جاء أبو البنات يحمل فأسه، ربما كان ذاهبًا إلى حقله، أتجه إلى الوراقة وهو يراها بعين كليلة، لقد أسودت الدنيا أمامه ولم يعد يرى، قال:

– أين كنت ياوراقة؟

لم ترد الوراقة، لم تلتفت إلى أي إنسان، حتى والدها لم تلتفت إليه، عاد يقول:

– لم تذهبي حيث طلبت منكِ، فأين كنتِ؟

ما كان من الوراقة سوى الصمت، قال أبو البنات والكل يسمع قوله:

– بحثت عنك طويلاً، فأين كنت؟

لم تنفرج شفتاها عن صوت، كانت وكأنما لا تسمع أحدًا، قال الأب الحزين:

– فأين تبغين الآن؟ تعالي إلى الدار لنتحدث!!

كانت الوراقة تتجه إلى التيه، وعندما تيقن كل واحد أنها تتجه إلى التيه بدأوا ينفضون، قال البدين:

– علَّى أن أسقي اليوم.

وانصرف.

وقال الساهي:

– نضجت حبات البسلة على الفروع، ويجب أن أجمعها اليوم.

وانصرف.

وقال وارث العباءة:

– لقد اقتربت صلاة الضحى يا رجال.

وانصرف، ومعه انصرف الكثيرون.

فلما اقتربت من مدخل التيه لم يكن هناك سوى جاحظ العينين والبنا، وأبو البنات.

توقف أبو البنات لحظة، وتوجه إلى الوراقة:

- أين تبغين يا ابنتي؟

قالت الوراقة وهى تبحث بعينيها في أركان العالم حولها وبعيداً عنها:

- أبحث عن ولدى.

قال أبو البنات حزيناً:

- ليس لك ولد يا ابنتي، هو ابن الإثم وابن الآثم.

قالت الوراقة في صيحة ألم:

- هو ولدي، أتى من رحمي، حملته وولدته، وأرضعته.

لم يتمالك أبو البنات نفسه عند هذا القول، في لحظة لم ينتبه إليها الآخران كان قد رفع يده بفأسه وهوى على رأس ابنته، وقال في فرحة:

- أخيراً غسلت عاري.

تهاوت الوراقة على الأرض، واندفعت الدماء غزيرة من رأسها، تناثرت على الأرض والصخور والنباتات البرية القليلة الغريبة هناك عند مدخل التيه، جاحظ العينين يشهد صامتاً، والبنا صاح وهو ينتزع الفأس من يده:

- كيف تجرؤ؟

قال أبو البنات تاركاً البنا يأخذ الفأس من يده وقد ملأه الألم:

- تعرف أنها جلبت لي العار.

جلس البنا على ركبتيه، يقلب في الجسد الذي ساده السكون والموت، قال البنا حزينًا:

– قتلتها!!

نظر البنا إلى أبيها، وقال يكبح الغضب:

– ماتت الوراقة، قتلتها!!

لم يجب أبو البنات، جلس إلى جوار البنا أمام الوراقةُ، وبكى، وضع رأسه بين يديه، وبكى، قال:

– ما كنت أتمنى أن أفعل، لكنها جلبت لي العار.

حمل البنا الوراقة بين يديه، عائدًا إلى القرية، وراءه سار جاحظ العينين، صامتًا صمت الزمن الغادر، ساكنًا سكون الموت، لا ينظر إلى شيء، وأبو البنات متهدل الكتفين، ينظر إلى الجثة يحملها البنا، ذراعاه متهدلتان إلى جانبيه، ولا ينبس.

عاد الناس يتجمعون، عندما وصل البنا إلى الساحة عند الجرن، كان الجمع قد أصبح كبيرًا، الجميع يأتي، يتقاطرون من كل ناحية فرادى، والصمت لا يقطعه أحد، كما صمتت الوراقة يصمتون الآن.

نزل الطالع من أعلى النخلة وسار يسأل:

– أين الوراقة؟

ذهب باتجاه التيه مثل الباقين يمد يديه، يحاول أن يوقفهم ليسألهم:

– أين الوراقة؟

انزوى اللئيم مرتعشًا، وقال:

– تعال يا أخي، لا تسأل.

أخيراً جاء البدين، نظر إلى البنا يحمل الوراقة، وارتعد حزيناً، قال البدين:

- ما هكذا كنا نريد أن نرى الوراقة أبدا.

جاء الساهي، وقف أمام البنا وهو يحمل الوراقة، وقال:

- أحسنت يا بنا، غسلت عارنا.

نظر البنا مذهولاً وقال:

- لست أنا.

قال أبو البنات وهو يكتم ألمه:

- أنت ابن عمها، وقد كانت موهوبة لك، وهذا حقك.

عاد البنا ينظر إليه:

- لست أنا!!

جاء وارث العباءة، قال بهدوء في صوته القوى:

- هذا ما كان ينتظر من البنا، رجل وابن رجل!!

صرخ البنا:

- لست أنا!!

جاء الطالع، وارتعد قائلاً:

- قتلت الوراقة يا بنا؟؟

بكى البنا قائلاً:

- لست أنا، لم أقتل الوراقة أبدا، لست أنا.

أمسك جاحظ العينين بذراع البنا:

– لا تدفع عن نفسك الآن، فقد انتصر الزور، والحق لم يعد يرى.

قال شاتل الأرز:

– فمن الذي فعل؟

قال البدين:

– ولِمَ لا تكون أنت؟

قال الساهي:

– فمن قتل الوراقة؟ كنتما معها كلاكما!

قال شاتل الأرز:

– ألم يكن أبو البنات أيضًا معها؟

قال وارث العباءة:

– لا يهم كل هذا الآن، هيا بنا لنلقي بها إلى الترعة.

قال جاحظ العينين:

– بل ندفنها في التل الغربي.

قال وارث العباءة:

– هل يدفن العار في أرض الطهرة البررة؟ لا يصلح هذا أبدا، ألقوا بها إلى الترعة.

قال البنا:

– سأدفنها في مقبرة أمي.

قال وارث العباءة:

– قلت تلقى في الترعة ولا تدفن أبدا في مدافننا.

اتَّجه البنا حاملاً الوراقة نحو الغرب، لكن الرجال الذين يخافون الله ويخشون العار والدنس أقبلوا عليه وأوقفوه.

قال جاحظ العينين حزينًا ومتألمًا:

– دعوا الأمور تمضى مرةً واحدةً، هل لا بد أن يشهد الجميع خلافكم حتى في دفن موتاكم؟

قال وارث العباءة.

– لا خلاف إلا منك وابنك يا جاحظ العينين، لقد سمع الجميع ما قلت، وستلقى جثة الوراقة في الترعة.

قال جاحظ العينين للبنا:

– اتركها لهم، اتركها لأبيها الذي قتلها.

قال البنا:

– لا أتركها، وسأدفنها في مقبرة أمي.

قال أبو البنات:

– كنت أتمنى دائمًا أن أكون أنا قاتلها، والآن لا مفر لي من أن أضعها بنفسي بين يدي الترعة لكي لا يكون لها قبر يزار.

قال وارث العباءة:

– هكذا قال لنا الوالد رحمه الله، لا تدفنوا الآثمين في تربة أسلافكم.

حمل الأخوة الوراقة إلى الترعة، وضعوا الجسد الساكن في الكفن، وبين كفي الترعة وضعوها.

سار الكفن على صفحة الماء طافيًا، يحوى الجسد الذي كان يملأ القرية بالأمس، سار طافيًا في وسط الترعة.

وعلى البر وقف الطالع يناجيه:

"ع البر يا طالب الدفنة."

وعند كل قرية سار أمامها، وقف الناس على الشاطئين يناجونه:

"ع البر ياطالب الدفنة

ع البر ياطالب الدفنة"(٣).

لكن الجسد حبيس الكفن لم ينح نحو أىٍّ من البرين، وإنما ظل سائرًا، يبغي هدفًا لا يعرفه أحد.

(٣) هكذا يقول الفلاحون المصريون منادين أى جثة مجهولة ملقاة في النيل أو الترع.

طعم الموت

ما طعم الموت؟

ما طعم خروج الروح من البدن؟

كل إنسان له طريقته في الحياة، وستكون له طريقته في الموت، الموت هو الإبداع الأخير الذي ينجزه كلٌ منا، وكلٌ بطريقته الخاصة جداً، وهذا هو ما يكمل مفتاح شخصية الإنسان منا، يظل هناك عنصر غامض في شخصية المرء حتى تكتمل إبداعاته بهذا الإبداع الأخير.

هكذا سأل ابن الريَّس،

وهكذا أجاب الحكيم.

المراجعة اللغوية : نيرمين ممدوح

الزهـور لا تمـوت، إنمـا تنضو ثيابها الزاهيـة لتضع كل عصارتها في جنينها حتى ينمو ويكبر ويصبـح ثمـرة ،وهي تنضـو ثيابها لكيلا تنتبه الحشـرات إلى جنينها فتحط عليه وتتلفه،كانت الزهـرة تلبـس تلك الثيـاب الفاتنـة لإغـواء الفراشات والنحلات ،فلما انتهت مهمتها عليهـا التخلص منها لتتفرغ لجنينها.

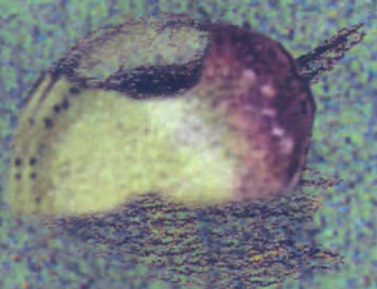

المجلس الأعلى للثقافة

رسوم وتصميم الغلاف:علا بدار